موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(٤)

اجتناب سوء الظن

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com

دار رواح للنشر والتوزيع

ح مرزوق بن صنيتان بن تنباك ، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية/مرزوق بن صنيتان بن تنباك ... [أخ]. الرياض.

٥٢ ج؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٧-١٨٩-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٤)

١- الأدب العربي – موسوعات أ- ابن تنباك ، مرزوق بن صنيتان (م . مشارك)

ديوي ٨١٠,٣ ٢١/٢٠٧٨

رقم الإيداع : ٢١/٢٠٧٨

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٧-١٨٩-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٤)

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
توطئة	٥
الظن لغةً	٧
الظن اصطلاحًا	٨
مكانة الظن	٩
ظن العاقل خير من يقين الجاهل	١٣
نفس المؤمن ظنون عنده	١٩
رحم الله امرأً جب المغيبة عن نفسه	٢٢
إن الشفيق بحسن ظن مولع	٤٠
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه	٤٣
تسقط به النصيحة على الظنة	٥١
احتجزوا من الناس بسوء الظن	٥٢
عوامل الزلل في سوء الظن	٥٨
الآثار المترتبة على سوء الظن	٦٨
اجتناب التجسس	٧٣
من ساء الظن بالناس تجسس عليهم	٧٤
ذهاب البصر خير من كثير من النظر	٧٨
أكثر الأسئلة فيها آفات	٨٣
الجيران طلائع عليك	٨٦
هل يذم التجسس على الدوام؟	٩٠
التجسس والحرب	٩٢
الفهارس	٩٧

www.mtenback.com

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً   فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا   عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ

حافظ إبراهيم

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

توطئة:

إنَّ الظنّ مغروس في طبيعة البشر، وهو نشاط عقلي محايد لا يصح أن يُحْمَدَ أو يُذَمَّ، وهو رد فعل لأمارات وعلامات في الواقع المحيط بالإنسان، ينتهي إلى صدق الفراسة أو فشل الظنون.

ولكن المرء الذي رُبِّي على التنشئة السليمة يحسن الظن بالآخرين، وهذا الإحساس ملكة لا تكتسب إلاَّ برقابة النفس، وإخضاعها لسلطان العقل والدين، والتماس الأعذار للآخرين بسلامة صدر. وقد يحمل سوء الاعتقاد على أن يُنَزَّل عمل الآخرين على الوجه الأردأ من غير دلالة ظاهرة. ومن هنا يبرز «إنَّ بعض الظن إثم»، ومما يدفع إلى سوء الظن سوء التربية، ودغل القلوب وأحقادها التي تؤول بصاحبها إلى مرض نفسي. إلاَّ أنَّ من الظن ما هو فراسة وتنبؤ وألمعية بدلالة الظواهر واستقراء الأحداث دون انخداع بملابسة الأمور. ومن الظنّ ما هو محمود، كالظن الحسن بالله، واتهام النفس، وقد قيل: «نفس المؤمن ظنون عنده» وهذا يدفع أنماط السلوك من حسن إلى أحسن، ويثمر خيراً.

وعلى المقابل نجد من مظاهر سوء الظن العجب بالنفس، واتهام الناصح، وسوء الظن بكل أحد، وتقطيع الأواصر، وغبن الآخرين، ممّا يورِّط صاحبه في رذائل كثيرة.

وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس، ممّا يدفع إلى تتبع عورات الناس، وفضول النظر واللسان. بيد أنّ للتجسس أحكامه بين منهي عنه، ومستحب، أو واجب كالتجسس في الحرب أو على المجرمين.

وفي جميع الأحوال نحن مدعوون لأن نبعد أنفسنا عن مواطن الظن السيّئ بالآخرين، فلا نكون نحن المقصِّرين بحق أنفسنا. وعلينا عدم التعجُّل إلى إصدار الأحكام بناء على الظنون والأوهام وما توسوس به النفس الأمارة بالسوء.

www.mtenback.com

ومن هنا جاء هذا البحث، يستعرض طبيعة الظن، ومجالاته، ودواعيه ونتائجه، وما أثر فيه من الأقوال معتمدين على موروث الثقافة العربية ومواقف الخير التي تُغَلِّبُ حسن الظن وتدعو إلى حمل الناس على محمل حسن يبعد الشك والريبة عنهم وعن أعمالهم، حتى تطيب النفس بصحبتهم، وتستقر العلاقات الطيبة بينهم فينمو الخير والصلاح في المجتمع ويعيش حياته هانئًا مستقرًا.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الظن لغة:

(الظن)، كما تشير المعاجم اسم لما يحصل عن أمارة وعلامة، متى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً لم تتجاوز حد التوهم.

والظن من ألفاظ الأضداد، أي الألفاظ التي لها معنيان متضادان؛ فالظن يكون شكًا ويقينًا، والظن: الحسبان، تقول: ظننت بفلان خيرًا أي حسبت.

والفارق بين الظن والعلم: أن الظن إذا دل على اليقين لا يكون يقين عيان، إنما هو يقين تدبر، أما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علمًا، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[1] أي علمت.

والظِّنة: التهمة، والظنين: المتهَم الذي تظن به التهمة.

والمظان: جمع مَظِنّة، وهي موطن الشيء ومعدنه، مثل: «طلبت الدنيا من مظان حلالها» المعنى طلبتها في المواضع التي يعلم فيها الحلال.

والظَّنون: الرجل السيئ الظن، وقيل السيئ الظن بكل أحد[2].

---

[1] سورة الحاقة: ٢٠.

[2] راجع في الدلالة اللغوية للظن ما يلي:

- المقري، أبو العباس أحمد بن عمار: ظاءات القرآن الكريم،تحقيق محمد سعيد المولوي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط١، (١٩٩١م،) ص٣٦-٣٧.
- الزنجاني، أبو القاسم سعد بن علي بن محمد: الفرق بين الظاء والضاء، تحقيق: محمد سعيد المولوي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط١، (١٩٩١م)، ص١٤٥.
- الراغب الأصبهاني، الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: د. محمد خلف الله أحمد، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، (١٩٧٠م)، ص٤٧٢.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة دار المعارف (١٩٧٩م).

www.mtenback.com

وفي كتاب الله وردت مادة الظن نحو ست وستين مرة، وتنوعت دلالة هذه المادة في القرآن الكريم، فقد يرتبط المعنى باليقين الذي يقر في النفس في مثل قوله سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٣].

وورد الظن في سياق الوهم الذي لا يحمد، على نحو ما نجد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٤].

وقد ورد الأمر باجتناب كثير من الظن، إذ إن بعضه إثم، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٥].

الظن اصطلاحًا:

يدلنا تأمل الدلالة لكلمة (الظن) في المعاجم على أنه نشاط عقلي محايد، فلا يصح أن يحمد أو يذم في ذاته، والأمر مرتبط بطبيعة المسار الذي يتخذه هذا النشاط العقلي، وطبيعة الآثار المترتبة عليه. فالظن رد فعل لأمارات وعلامات في الواقع المحيط بالإنسان، يؤسس عليها تفكيره، وهي إما أن تفضي إلى العلم واليقين، وإما أن تؤدي إلى الشك والتوهم وذلك كله مما لا يلزم.

---

[٣] سورة البقرة: ٤٥-٤٦.

[٤] سورة فصلت: ٢٢-٢٣.

[٥] سورة الحجرات: ١٢. وانظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب ط٢، (١٩٧٠م)، ج٢، ص١٧٠-١٧٢.

www.mtenback.com

أما الظن المذموم فهو الظن السيئ، الذي يدفع صاحبه إلى الحكم السيئ على الآخرين اعتماداً على أسباب واهية لا تسوّغ هذا الحكم.

وإذا ذكرت كلمة الظن فإنها غالبًا ما تكون مرتبطة في الأذهان بالدلالة السلبية المستهجنة، إلا إذا كانت هناك قرينة تحمل هذه الكلمة على معنى الاعتقاد، كقولك أنا أظن أن أخي سيصل غدًا. وقد ورد أن الظن من طبيعة النفس لا سلطان للمرء عليه، ففي الحديث الشريف: «إياكم والظنَّ فإن الظن أكذبُ الحديث» أراد الرسول ﷺ أن الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به، وقيل: أراد إياكم وسوءَ الظن وتحقيقه دون مبادئ الظنون التي لا تملك، وخواطر القلوب التي لا تدفع، ومنه الحديث: «وإن ظننتَ فلا تحقّقْ»[٦].

والظن يرد هاجسًا في النفس ويختلف موقف الفرد منه تبعًا لطبيعة التكوين النفسي له؛ فمن الناس من يرى موقفًا يحتمل وجهين حسنًا وقبيحًا، فيأخذ بالوجه القبيح، ويطلق لخياله العنان، فينتقل من خاطر سيئ إلى خاطر أسوأ، دون وجود أدلة تسوغ هذه الظنون المريضة.

مكانة الظن:

يذكر الغزالي أن من الظن ما يسمي (تفرسًا) وهو الذي يستند إلى علامة، فإن ذلك يحرك الظن تحريكًا ضروريًا لا يُقدر على دفعه. ومن الظن ما منشؤه سوء اعتقاد، في أحد من الناس حتى يصدر منه فعل له وجهان، فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزل عمله على الوجه الأردأ من غير علامة تخصه به[٧].

---

[٦] ابن منظور: لسان العرب ٢٧٦٣.

[٧] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، القاهرة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني (د.ت)، ج٢، ص١٧٧.

www.mtenback.com

وهذا القسم الآخر من الظن وخيم العاقبة، فهو يعد جناية بالباطن، وذلك حرام في حق كل مؤمن، فقد قال ﷺ: «إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء»[٨].

وهناك علامة نفسية لعقد الظن وتحقيقه وهي أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفوراً ما، ويستثقله، ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه[٩].

والظن عادة يكون صورة من نفس صاحبه، فقد تُري الظنون المرءَ أحد الأثرياء يتنقل بسيارة فاخرة، ويرتدي الثياب الحسنة الغالية، فيسارع صاحب التكوين النفسي المريض إلى إساءة الظن، فيقر في يقينه أن هذا الثري لص فاجر، وأن ما يحوزه من مظاهر ثروة إنما هي علامات وأدلة على نهبه أموال الناس واستغلاله لهم! بينما يراه ذو النفس المتزنة النقية مظهراً تتجلى فيه نعم الله على عباده، ويتوقع أن مظاهر الترف التي ظفر بها ليست إلا ثمرة لكفاح شاق موصول، فيتمنى له الخير والنماء والبركة.

والعلة في تفاوت الحكم على الشخص نفسه راجعة إلى أن صاحب الظن السيئ خبيث النفس مريض القلب، فهو لا يرى في الناس ولا يظن بهم إلا ما تعكسه نفسه الخبيثة وقلبه المريض من ظنون سيئة وأوهام سوداء! في حين يكون الآخر طيب النفس سليم النية، فذلك ينعكس على سلوكه وتصوره وظنه بالناس.

وحول هذا السلوك يقول الشاعر[١٠]:

يَرُومُ أَذَى الْأَحْرَارِ كُلُّ مُلاوِمٍ وَيَنْطِقُ بالَعْوراءِ مَنْ كَانَ أَعْوَرَا

---

[٨] المرجع السابق ٢/١٧٧.

[٩] المرجع السابق ٣/١٥١.

[١٠] ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى: مجالس ثعلب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار المعارف، ط٤، (١٩٨٠م)، ج٢، ص٣٤٥.

www.mtenback.com

ولأن الأحرار والكرام من الناس مظنة الحسد والأذى فقد توجه لهما سهام النفس المريضة والطبيعة الملتوية، فمن أحسَّ النقص في نفسه حاول أن يجد له معادلاً عند الآخرين فيؤذي شعورهم وينطق لسانه بمساوئهم. والشاعر الآخر يرجع سوء الظن إلى حقارة النفس، مما يورط صاحبها في إحساس كاذب بتعاظم الذات، وهو ما يجعله يظن أن كل المحيطين به أقل شأنًا منه[11]:

أَيُّ امرِئٍ حَقَرَ الرِّجَالَ فَنَفْسُهُ تِلك الحَقِيْرَه!

وقد سئل أحد الحكماء: ما ظنك بجارك ؟ قال: كظني بنفسي، يريد أن يقول، إن الفاجر يظن بجاره الفجور[12]. وحَسَنُ الظن يظن الحسنى في الناس ويتعامل معهم على هذا الظن الحسن.

وإحسان الظن ملكة لا يكتسبها الإنسان إلا برقابة النفس، وإخضاعها لسلطان الدين والعقل. ويتضح مدى تمكن هذه الملكة في النفس حين يصبح إحسان الظن في كل حال سمة ملازمة لها، حتى وإن كثرت العوامل والأدلة المانعة عن الظن الطيب وكثرت.

وقد جعل الغزالي إحسان الظن بالآخرين «سكوتًا عن مساوئهم بالقلب» فهذا يعني أن إحسان الظن له أهمية الإمساك عن الغيبة، «كما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه يجب عليك السكوت بقلبك، وذلك بترك إساءة الظن» فهو غيبة بالقلب، وهو منهي عنه أيضًا، وحدُّهُ ألا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله

---

[11] الرقيات، عبيد الله بن قيس: شعر ابن قيس الرقيات، تحقيق: د. إبراهيم عبد الرحمن محمد، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، (١٩٩٦م)، ص٢١٥.

[12] ابن سلام، أبو عبيد القاسم: كتاب الأمثال، تحقيق: د. عبد المجيد قطامش دمشق، دار المأمون للتراث، ج٢، ص٧٨٢.

www.mtenback.com

على وجه حسن، فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فلا يمكنك إلا أن تعلمه، وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو أو نسيان إن أمكن[١٣].

ويرتبط إحسان الظن أو إساءته بالميل والهوى، فمن أحب ورضي غفل عن العيوب وتجاوزها، ومن كره وسخط لم ير سواها ! ومن أمثال العرب: حبُّك الشيءَ يُعمي ويُصِم[١٤] ويقول الشاعر:

وَعَيْنُ الرِّضَا عن كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ ولكنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبدِي المسَاوِيَا!

وعلق الغزالي على هذا البيت قائلاً: «إن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر، فمهما رأيت إنسانًا يسيء الظن بالناس، طالبًا للعيوب فاعلم أنه الخبيث في الباطن، وأن ذلك خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق»[١٥].

وزيادة على أن ملكة إحْسان الظن التي أشرنا إليها مظهر على رقابة النفس وخضوعها لسلطان الدين والعقل؛ فهي تعد عاملاً مهمًّا من عوامل تحقيق الاستقرار النفسي، والإحساس بالطمأنينة والسكينة، فمن أمثال العرب وحكمها: «من جعل لنفسه من حسن الظن بإخوانه نصيبًا أراح قلبه. والمقصود «أن الرجل إذا رأى من أخيه إعراضًا أو تغيرًا فحمله منه على وجه جميل، وطلب له المخارج والعذر خفف ذلك عن قلبه، وقلَّ منه غيظه واغتمامه»[١٦].

ونشير أخيرًا إلى العلاقة بين الظن والشك ببيان أثر الشك في تحديد حرمة الظن، وهو ما حدده الغزالي حين قال: «اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول

---

[١٣] إحياء علوم الدين ٢/١٧٧.

[١٤] كتاب الأمثال: ٢٢٤.

[١٥] إحياء علوم الدين: ٣/٣٦.

[١٦] كتاب الأمثال: ١٨٤.

www.mtenback.com

فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك » بمساوئ الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك،ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه، بل الشك أيضًا معفو عنه، ولكن المنهي عنه أن يظن، والظن بما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[١٧].

وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا تكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك و لم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإن الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه، فإنه أفسق الفساق، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[١٨] فلا يجوز تصديق إبليس. وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به.. فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال، وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر[١٩].

ظن العاقل خير من يقين الجاهل:

ونحن في سياق تحديد المفهوم الذي ينصرف إليه الظن لا بد لنا من التطرق إلى وجه تنصرف إليه دلالة الظن، وهي البصر بحقيقة الأمر دونما انخداع بظاهره، والتروي في

---

[١٧] سورة الحجرات: ١٢.

[١٨] سورة الحجرات: ٦.

[١٩] إحياء علوم الدين، ج٣، ١٥٠، ١٥١.

www.mtenback.com

الحكم على الأشياء، بمعنى عدم المبادرة برأي فيها مبني على الانطباع العاجل والنظرة السطحية وكذا القدرة على توقع ما يحدث في المستقبل، قياسًا على ظواهر مشاهدة وأحداث واقعة.

وفي تراثنا الشعري ما يشي باستهجان الانخداع بظاهر الأشياء، وهو ما يورِّط في أحكام غير صحيحة، ويفضي إلى نتائج منبتة الصلة عن مقدمات تؤدي إليها على نحو ما نفهم من قول الشاعر[٢٠]:

عجبَتْ أُثيلةُ أن رَأَتْني مُخلِقًا ... ثَكِلَتْك أمُّك إنَّ ذاكَ يَروُعُ

قد يُدْرِكُ الشَرَفَ الفتَى ورِدَاؤُهُ ... خَلِقٌ وجَيْبُ قميصِه مَرْقُوعُ

إن الثياب البالية مظهر يثير العجب، وربما يدفع ذلك إلى إساءة الظن بصاحبها، وهو ما يمثل نظرًا سطحيًا قاصرًا لا يتعمق ليصل إلى معاني الشرف وامتلاك مقومات الشخصية المتكاملة مما قد يختفي وراء هذه الثياب البالية!

وهنا تحضرنا طائفة من الأمثال والحكم التي تؤكد أهمية التأني في الحكم على الظواهر في الواقع المعيش، وعدم الانسياق وراء الانطباعات الأولى والنظرات العابرة العجلى، فلا يصح أن نبالغ في الحمد والثناء إلا استنادًا على معرفة، لقولهم: لا تَهْرِفْ قبل أن تَعْرِفَ![٢١].

وعلى المرء أن يتفهم دلالة الظواهر والأحداث، لقولهم: «تُخبرُ عن مجهوله مَرْآته»[٢٢]، أي أن ما ترى من ظواهر حاله ينبئك عما غاب من أمره.

---

(٢٠) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: مقامات الزمخشري، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، (١٩٨٢م)، ص٧٢.

(٢١) الهرف: المبالغة في المدح والثناء، كتاب الأمثال، ص٦٤.

(٢٢) المرجع السابق ٢١٠.

www.mtenback.com

والاعتماد على هذا المبدأ يهدي إلى أحكام تنير العقل وتزيد رجاحته، «فالعقل الإصابة بالظن»[٢٣]. وبذلك يكون « ظن الرجل قطعة من رأيه»[٢٤]. والوصول إلى الحكم في هذه الحالة – وإن كان مؤسسًا على الظن والاعتقاد – يفضل يقين المندفع الجاهل. وقد قالت العرب: «ظن العاقل خير من يقين الجاهل»[٢٥] ولتلاقي العقول وتبادل الآراء في هذه الحالة أثر بين إذ «لا تكاد الظنون المتفرقة تجتمع على أمر مستور إلا كشفت عنه»[٢٦].

ولا يلبث هذا المبدأ أن يصبح سمة ملازمة للإنسان يدرك معها عواقب الأمور ويبقى دومًا حذرًا من حوادث الدهر المفاجئة على نحو ما ينصح «الزمخشري»: أقبل على نفسك فسمها النظر في العواقب وبصّرها عاقبة الحذر المراقب[٢٧].

وهكذا تلتقي بعض مفاهيم الظن مع الفراسة فيتوصل الإنسان المتحلي بهذه الصفة إلى المجهول غير المعلوم اعتمادًا على استقراء الظواهر المعاينة، إذ «تخبر عن مجهوله مَرْآتُه»[٢٨] وفي ذلك يقول الشاعر[٢٩]:

قَدْ يُسْتَدَلُّ بِظَاهِرٍ عَنْ بَاطِنٍ حَيْثُ الدُّخَانُ يَكُونُ مَوْقِدُ النَّارِ

---

[٢٣] الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل: التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، (١٩٦١م)، ص٤٢٦.

[٢٤] المرجع السابق: ٤٢٦.

[٢٥] المرجع السابق: ٤٢٧.

[٢٦] المرجع السابق: ٤٢٧.

[٢٧] مقامات الزمخشري: ١٨.

[٢٨] كتاب الأمثال: ٢١٠.

[٢٩] التمثيل والمحاضرة: ٤٢٧.

www.mtenback.com

ويقي هذا النهج من التفكير المرء من التورط في أحكام غير مؤسسة على أسس قويمة، ونتائج منبتة الصلة عن مقدماتها المؤدية إليها، والسبب في ذلك راجع إلى عدم التثبت والتفكير.

فمن أمثال العرب في ذلك: «لا تحمدنَّ أمةً عام اشترائها، ولا حُرَّة عام بنائها» وهذا مثل يضرب لكل ما حمد قبل أن يختبر[٣٠]. وفي ذلك يقول الشاعر[٣١]:

لا تَحْمَدَنَّ امْرأً حَتَّى تُجَرِّبَهُ ... ولاَ تَذُمَّنَّهُ مِنْ غَيرِ تَجرِيبِ

فَحَمْدُكَ المَرْءَ مَا لَم تَبْلُهُ سَرَفٌ ... وَذَمُّكَ المَرْءَ بَعْدَ الْحَمْدِ تَكْذِيبُ

فالشاعر ينصح بعدم التورط في ظنون وأوهام تدفع إلى حمد الناس والثناء عليهم دون تجربة تؤكد، على نحو حاسم، صحة الأحكام التي تصدرها عليهم. والحال كذلك حين نذمهم ونضيق بهم، فالوصول إلى مثل هذه الأحكام بلا اختبارٍ إسرافٌ وتخبط، قد جعل صاحبه يبدو كاذبًا حين يرجع عن حكمه في إنسان فيذمه بعد مدح وثناء!

هذا، فضلاً عن أن عدم التأني في الحكم على الناس يؤدي إلى الوحدة والوحشة على نحو ما يخبرنا الشاعر[٣٢]:

مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُهُمْ ... ثُمَّ بَلاَهُمْ ذَمّ مَنْ يَحْمَدُ!

وصَارَ بِالوَحْدَةِ مُسْتَأنِسًا ... يُوحشُهُ الأقْرَبُ والأَبْعَدُ!!

وهذا المبدأ ينبغي أن يكون مبدأ حاكمًا للتعامل مع الناس ويلزم أن يكون معيارًا يحكم به على ظواهر الأمور، إذ لا تستقيم الحياة مع أحكام أساسها الظنون العجلى.

---

[٣٠] كتاب الأمثال: ٦٧.

[٣١] المرجع السابق ٦٧.

[٣٢] إحياء علوم الدين: ٢/٢٣٤.

www.mtenback.com

وقد قيل: «أيها العاقل لا يعجبك هذا الماء والرونق، فإنه صفو مخبوءٌ تحته الرنـــق، ولا يغرنك هذا الرواء المونق فوراءه البلاء الموبق»[٣٣].

ومن أمثال العرب في ذلك قولهم: «ترى الفتيان كالنخل ومـــا يدريـك مـا الدخل»[٣٤] فهؤلاء الفتيان يدل مظهرهم الخارجي على القوة، ويبعث على الإعجاب، ولا يفطن إلى حقيقتهم المخفية الباطنة إلا أصحاب الظن السديد.

ومثل هذا الظن السديد يجنب صاحبه الشقاء، فحكمنا على الأمور قد يجلب لنا الراحة والهناء كما أنه قد يجر علينا الشقاوة والعناء، لقولهم «تَجنَّبَ روضـــةً وأحـــال يعدو»! أي ترك الخِصْب واختار عليه الشقاء[٣٥].

وقد أورد ابن المقفع قصة طريفة تدعو إلى ألا يُخدع الإنسان بظواهر الأمـــور المحيطة به، وعدم تغليب الظنون المغلوطة في الحكم عليها، بما يدفع إلى اتخاذ موقف غير صحيح. يقول ابن المقفع: «زعموا أن ثعلبًا أتى أَجَمَة فيها طبل معلق علـــى شـــجرة وكلما هبت الريح على قضبان تلك الشجرة حركتها فضربت الطبل فسُمِع له صـــوت عظيم باهر، فتوجه الثعلب نحوه لأجل ما سمع من عظيم صوته فلمـــا أتـــاه وجـــده ضخمًا، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم، فعالجه حتى شقَّه، فلما وجده أجـــوف لا شيء فيه قال: لا أدري لعل أفشل الأشياء أجهرها صوتًا وأعظمها جثة»[٣٦].

وإذا قر في النفس التروي، وعدم التعجل بالأخذ بظنون عابرة، فإنها تكتســـب مهارة التنبؤ بما يقع في المستقبل من أحداث، وذلك من البصر الدقيق بمقدمات هـــذه الأحداث في الحاضر مع دقتها وخفائها.

---

[٣٣] مقامات الزمخشري: ٢٤، ٢٥.

[٣٤] كتاب الأمثال: ١٣٠.

[٣٥] المرجع السابق: ١٢٦.

[٣٦] ابن المقفع، أبو محمد عبد الله: كليلة ودمنة، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ت)، ص١٠٧.

www.mtenback.com

وبهذا نكون قد وقفنا على دلالة وصف الواحد بأنه «ألمعي» ومنه قول أوس بن حجر[٣٧].

الأَلْمَعيُّ الـذِي يَظُـنُّ بِـكَ الظَّـ ـنَّ كَـأَنْ قَـدْ رَأى وقَـدْ سمِعَـا

وجاء في أمثال العرب ما يكشف عن طبيعة هذه المهارة وآثارها، ومن ذلك قولهم «إني إذا حككت قرحة أدميتها» يعني: أنه كان يظن هذا الأمر واقعًا فكان كما ظن[٣٨]وقولهم: «من لم ينتفع بظنه لم ينتفع بيقينه»[٣٩]. وقد سئل بعض حكماء العرب: ما العقل؟ فقال: «الإصابة بالظنون، ومعرفة ما لم يكن بما قد كان»[٤٠] وقيل: «النظر في العواقب تلقيح للعقول»[٤١]. أما ابن الزبير فيقول: «لا عاش بخير من لا يرى برأيه ما لم ير بعينه»[٤٢].

ويستطيع المرء بذلك أن يتخذ مواقفه في الحياة على نحو مؤسس على رجاحة العقل وبعد النظر، وذلك من خلال الفهم الدقيق لطبيعة أحداث هذه الحياة، فالعاقل من يرى بأول رأيه آخر الأمور»[٤٣]، وعلى هدى ذلك تتخذ المواقف كما ذكرنا. فمن أمثال العرب في ذلك قولهم «لا تقتن من كلب سوء جروًا»[٤٤]، وقولهم «كيف بغلام قد أعياني أبوه ؟! أي إنك لم تستقم لي فكيف يستقيمُ لي ابنك وهو دونك»[٤٥].

---

(٣٧) كتاب الأمثال: ص١٠٤؛ والتمثيل والمحاضرة: ص٤٢١.

(٣٨) المرجع السابق: ص١٠٤.

(٣٩) المرجع السابق: ص١٠٤؛ والتمثيل والمحاضرة: ص٤٢٦.

(٤٠) كتاب الأمثال: ص١٠٤.

(٤١) المرجع السابق: ص٢١٧.

(٤٢) التمثيل والمحاضرة: ص٤٢٦.

(٤٣) المرجع السابق: ص٤٢٦.

(٤٤) كتاب الأمثال: ص١٢٨.

(٤٥) المرجع السابق: ص١٢٧.

www.mtenback.com

وبهذا نكون قد حددنا أثر التروي وعدم الانسياق وراء الظنون التي تمثل نظراً سطحياً للأشياء، ونكون قد أدركنا قدرة ذوي العقول الراجحة على استقراء الأحداث المعيشة واستنتاج مايقع في المستقبل.

وقد ورد في أمثال العرب: «الألمعي منجم»[٤٦] وحكموا بأن ظن العاقل كهانة[٤٧]. والثمرة المرتجاة من ذلك كله تتمثل في تحقيق التوازن النفسي، وتأمين مسيرة المرء في الحياة، وذلك بالتوقع الدقيق لما سيحدث في المستقبل، وهو ما يترك آثاره على طبيعة الأفعال والتصرفات الصادرة عن الفرد، وفي ذلك يقول ابن المقفع: «من أبصر العاقبة فآثرها أمن الندامة»[٤٨] ويقول: «استصغر المشقة إذا أدت إلى منفعة»[٤٨]، ويقول: «من عرف ثمار الأعمال كان حقيقاً ألا يغرس مراً»[٤٩].

ويؤدي ذلك إلى الوعي بطبيعة رد الفعل عند اللئام، إذ «الصنيعة عند الكفور لا تثمر إلا مراً»[٥٠] وهو ما يوجب حذراً، وقد قيل: احذر صولة اللئيم إذا شبع»[٥١].

نفسُ المؤمن ظنونٌ عنده:

غني عن البيان أن المرء الذي أوتي قدراً من التوازن النفسي ورجاحة العقل واعتدال السلوك لا يتصور أنه يحسن الظن دوماً دون تحرز ولا احتياط، بل إن ثمة نمطاً من الظن لا يمكن أن يستغني عنه الإنسان مادام ينشد السمعة الطيبة ومنفعة نفسه

---

[٤٦] التمثيل والمحاضرة: ص٤٢٧.

[٤٧] المرجع السابق: ص٤٢٦.

[٤٨] ابن المقفع، أبو محمد عبد الله: حكم لابن المقفع، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ت) ص٣٨٢.

[٤٨] المرجع السابق: ص٣٨٢.

[٤٩] المرجع السابق: ص٣٨٢.

[٥٠] المرجع السابق: ص٣٨٣.

[٥١] المرجع السابق: ص٣٨٣.

www.mtenback.com

والمحيطين به، ويتجلى هذا النمط من الظن في مظاهر متعددة، ونبدأ في هذه الجزئية بأولها وهو «الظن بالذات».

يقول علي رضي الله عنه: «إن المؤمن لا يمسي ولا يصبح إلا نفسُه ظَنُونٌ عنده»[٥٢] أي متهمة لديه فالظن بالنفس يصح أن يعد مظهراً من مظاهر الصحة النفسية وقوة الإيمان، فعلى المرء أن يتأمل نفسه وما يصدر عنها من أفعال، فالظن هنا دليل على حساب النفس، وبرهان على أن المرء لم يقع تحت وطأة الإعجاب المستديم بالذات، حتى لا يكاد يفطن إلى عيوبها، ويتيقن من طبيعة سلوكها.

فقد يكون الواحد منا حريصاً على مجاملة الأقارب والجيران، ويجتهد في التماس صور البر بهم والإحسان إليهم، وهذا شيء طيب إلا أن الواجب يحتم أن يسأل المرء نفسه، هل يفعل ذلك وفاءً بحقوق المودة وصلة الرحم وعلاقة الجيرة وحسب أو أن هناك أهدافاً مرجوة، ومصالح مبتغاة لدى هؤلاء الأقارب والجيران تكون مظاهر البر والمجاملة والإحسان وسائل مؤدية إلى تحقيق هذه المصالح والأهداف.

وقد يكون المرء موظفاً في وظيفة تستلزم التعامل المباشر مع الناس، وقد يحرص على الترحيب بهم، والحفاوة بهم عند لقائهم، ويعمل على إنجاز احتياجاتهم، وعليه أن يسائل نفسه: أتُراه يؤدي عمله لأنه يتمثل مفهوم خدمة الناس، وقضاء مصالحهم، أم أنه يتطلع إلى ترقية لن يصل إليها إلا بالثناء العاطر من الناس؟!

إن مقولة علي رضي الله عنه لها عشرات الأمثلة في حياتنا، بدءاً من علاقتنا بربنا، وما نؤديه من فروض وقربات، وانتهاءً بصور علاقتنا المتنوعة المتعددة فيما بيننا، وذلك فيما يقع من أحداث يومية. وهذه النصيحة من شأنها دفع أنماط السلوك من حسن إلى أحسن، بتحقيق معاني الإخلاص في النية، والنبل في الدوافع والغايات.

---

[٥٢] ابن منظور: لسان العرب: مادة (ظن).

www.mtenback.com

وإخضاع النفس لهذا اللون من الظن يحقق من الأثر في تقويم السلوك ما يفوق اجتماع جهود الناس كلها للتقويم على نحو ما يقول الشاعر[٥٣]:

وَلَيْس عِتابُ النَّـاسِ لِلْمَـرْءِ نَافِعًـا إِذا لَمْ يكُـنْ لِلْمَـرءِ لُـبٌّ يُعاتِبُـهْ

فعتاب الناس جميعًا ليس بنافع للمرء الذي لا يعاتبه عقله ويخضع نفسه للمراقبة والظن. وهذا اللب المعاتب يفطن إلى عيوب الذات، ومن دونه يغفل الإنسان عن عيوبه وإن عظمت، ويتحرى عيوب الآخرين وإن هانت ودقت؛ وهو ما ينصب عليه هذا التساؤل الذي ورد في أمثال العرب «كيف تبصر القَذاةَ في عين أخيك وتدعُ الجذعَ المعترض في حلقك ؟!!»[٥٤].

ويرتبط البصر بعيوب الذات بمظاهر ملموسة في السلوك تؤدي إلى استقامة المعاملات بين الأفراد، إذ لا تستقيم هذه المعاملات إلا إذا صح منبعها الذي تصدر عنه في نفس الواحد منا. وبعبارة أخرى: إن للظن بالذات أثرين، يتضح أولهما في تهذيب النفس، ويتبلور الآخر في تقويم السلوك. والأثران كما لا يخفى متصلان اتصالاً وثيقًا.

فالحكماء يحذرون من أن «آفةَ العقل العُجْب»[٥٥]، ويحذرون كذلك من الانخداع عن حقيقة الذات وإعطائها منزلة ليست لها، يقول بعضهم: «لا تقولن لشيء من سيئاتك حقير، فلعله عند الله نخلة وعندك نقير»[٥٦]. وقد يمتنع المرء عن اقتراف ذنب، فيغتر وتعلو منزلة نفسه عنده، ويسهو عن أنه قد اجتنب هذا الذنب عجزًا لا ترفعًا «لا تحمد نفسك على ما تركت من الذنوب عجزًا»[٥٧].

---

[٥٣] كتاب الأمثال: ص١٦٤.

[٥٤] المرجع السابق: ص٧٤.

[٥٥] ابن المقفع: حكم لابن المقفع: ص٣٨٣.

[٥٦] مقامات الزمخشري ٧٨.

[٥٧] ابن المقفع: حكم لابن المقفع: ص٣٨٣.

www.mtenback.com

وسرعان ما يتجلى أثر ذلك في السلوك مما يحقق الآمال العزيزة، التي يحققها تكذيب النفس «أي مخالفة ظنها في حقيقة الأمر عند الهم به، وهو المقصود من الحكمة القائلة: «اكذب النفس إذا حدثتها»، ومعناها أن «الرجل يهم بركوب أمر جسيم، يقول: فلا تحدث نفسك بأنك لا تظفر، فإن ذلك يثبطك عن السمو إلى معالي الأمور، ولكن حدث نفسك بالظفر لتشيعك نفسك على ما تريد »[٥٨].

وهو نفسه ما ينصح به الشاعر[٥٩]:

وَاكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثْتَهَا إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِي بِالأَمَلْ

وينعكس أثر ذلك كما أشرنا على تعامل الفرد مع المحيطين به، على نحو ما تدلنا الحكمة القائلة: «لا تحنين على نفسك عداوة وبغضة اتكالاً على ما عندك من العمل والقوة والمنعة»[٦٠] ولا يغتر الأقوياء بفضل قوتهم على الضعفاء[٦١].

وبذلك يحقق المرء هدفين عزيزين، الأول: وقاية الآخرين من أذاه الذي يكون وليداً للغفلة عن الظن بالنفس، والآخر: تحقيق الفوز والنجاة وتأمين المسيرة في رحلة الحياة، إذ إن الضعيف المحترس من العداوة أقرب إلى السلامة من القوي المغتر[٦٢].

رحم الله امرأ جبّ المغيبة عن نفسه:

لا شك أنّ من أهم حاجات النفس وقايتها من أن يلحقها سوء الظن من الآخرين، وبذلك يكون قد تكامل الحديث عن العلاقة بين «الظن» و«الذات».

فالمرء الذي يملك مقومات الكرامة، ويتحرى القيام بدوره الإيجابي في حياته لا يرضى أن يقف مواقف الشبهات، ويعرض نفسه للريب والظنون، ولا يصح أن يكون

---

[٥٨] كتاب الأمثال: ص١١٦، ١١٧.

[٥٩] المرجع السابق: ص١١٧.

[٦٠] ابن المقفع: حكم لابن المقفع: ص٣٨٣

[٦١] المرجع السابق: ص٣٨٣.

[٦٢] المرجع السابق: ص٣٨٣.

www.mtenback.com

من السذاجة بحيث فيبني سلوكه و يتصرف كما لو كان يعيش بمفرده وينسى الآخرين الذين لهم ردود فعل إزاء كل ما يصدر عنه من أفعال و مواقف.

إن ظن الناس السيئ لا يصدر عن فساد طويتهم وخبث معادنهم في الأحوال كلها، بل قد يكون المظنون به هو المسؤول و المقصر بحق نفسه. «فمن الأمور ما يفعله الإنسان بنية طيبة، وقصد سليم، ولكنه قد يثير الظنون ويبعث على التهمة، ولو بغير حق. ومثل هذه الأمور يجب على العاقل أن يتجنبها، وألا يستهين بأسبابها، اعتماداً على حسن نيته. وسلامة قصده، حتى لا يلصق بنفسه تهمة هو منها بريء، ولا يعرض غيره للوقوع في سوء الظن والاتهام بالباطل. والتوجيهات النبوية تؤكد ذلك، فمما ورد قوله ﷺ: «دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك» وقوله: رحم الله امرأً جبَّ المغيبة عن نفسه»[٦٣].

وقد نصح النبي أحد أصحابه فقال: «يا حرملة ائت المعروف واجتنب المنكر، وانظر إلى الذي تحب أن يقوله الناس من الخير إذا قمت من عندهم فأته، وانظر إلى الذي تكره أن يقوله القوم من الشر إذا قمت من عندهم فاجتنبه. قال حرملة: فلما قمت من عند رسول الله ﷺ نظرت فإذا هما أمران لم يتركا شيئًا من إتيان المعروف واجتناب المنكر»[٦٤].

إن مثل هذه التوجيهات النبوية تنمي لدى المرء إحساسًا نبيلاً بحقوق المجتمع وأفراده، فالابتعاد عن مواضع الشبهات وقاية لأفراد المجتمع من اكتساب ذنوب الظن السيئ وآثامه، وما يعقب ذلك من اغتياب، وهو ما يصون جملة الآداب السامية والأعراف القويمة من التعرض للاضطراب، وذلك بدفع أذهان الناس دفعًا إلى ما يسيء.

---

[٦٣] محمد كامل حتة: القيم الدينية و المجتمع، القاهرة، دار المعارف، (١٩٨٣م)، ص١٥٧.

[٦٤] ابن المقفع، أسامة بن مرشد ين مقلد بن نصر: لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الكتب السلفية، (١٩٨٧م)، ص٥.

www.mtenback.com

وعدَّ الغزالي أن من اتقاء مواضع سوء الظن أداءٌ لحقوق الآخرين فيما يتعلق بقلوبهم ولألسنتهم، ووقاية للنفس من الوقوع في الإثم، وفيه «صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن، ولألسنهم عن الغيبة، فإنهم إذا عصوا الله بذكر من لا يتقي مواضع الشبهات وكان هو السببَ فيه كان شريكًا»[٦٥].

واتقاء الشبهات مبدأ لا ينبغي التفريط فيه، وإن اشتدت الظروف المحيطة الداعية إلى غير ذلك، كما يقول الزمخشري: «الحر عَزوف عَروف، لموارد السوء عَيوف، يربأ بنفسه عن استحباب الري الفاضح على احتمال الظمأ الفادح»[٦٦].

وهذا المبدأ من شأنه أن يدفع المرءَ إلى استحضار معاني التقوى من الله ثم من الناس «فتراقب عند مقارفة الريبة أقلَّ الناس وأدونَهم، وأذل الخلق وأهونَهم، وأعجزَهم عن التمرس بك، وأبعدَهم عن التعرض لك، وآمنَهم جأشًا أن ينم بسرك، أو يهم بهتك سترك، وإن كان صبيًا في حد الطفولة دارجًا، أو مصابا عن حيز التمييز خارجًا. ما بك إلا الحياء والنشور من محضره، واستقباح مواقعة المحظور أمام نظره، فأنت تبالغ في الاحتجاب منه والاحتجاز، ولا تبالغ في الاحتراس والاحتراز، ولا تألو مبالاة بظنه أن يتسلق إلى عوارك، ومحاذرة من حدسه أن يتجانف للاطلاع على شوارك، ثم لا تراقب الله ومعقباته، وما أعد للمجرمين من معاقباته، أليس الملك الحافظ أحق بتحفظك»[٦٧]. وفي ذلك يقول الشاعر[٦٨]:

إذا كُنْتَ فَرْدًا لاَ بِمَرْأى ومَسْمَعٍ ... منَ النَّاسِ فَاحْذَرْ مُنْشِئَ السَّمْعِ والبَصَرْ

---

[٦٥] إحياء علوم الدين: ٢/ ٢٠١.

[٦٦] مقامات الزمخشري: ص٦٩-٧٠.

[٦٧] المرجع السابق: ص١٧٩-١٨٠.

[٦٨] المرجع السابق: ص١٨١.

www.mtenback.com

ولا ترْتكبْ مَا لَو رَآهُ ابْنُ آدمٍ   لبرْقعَ خَدّيْكَ التّشوُّرُ والَخفَرْ
مَساويكَ تُخفيهَا حِذارًا منَ الوَرَى   أَلَيْسَ إِلَهُ الخَلْقِ أَخلَقَ بِالَحذَرْ
بَلَى فَتصوَّنْ في خَلائِكَ فَوْقَ مَا   تَصوّنْتَ قِدْمًا بَيْنَ ظَهْرَانَي البَشَرْ
وكُنْ رَجُلاً مَا سرّ مَا هَوَ مُعلنٌ   منَ الخَيْرِ إلاّ دُونَ مَا سَرّ مَا أَسَرّْ
فما قَصَبَاتُ الُمخْلِصينَ مَحُوزَةً   بِمْثلِ خَفيّاتٍ يُصَغّرْنَ مَا ظَهَرْ

والعاقل لا يرضى أن يترك للناس موضع شبهة، وهو ما يرتبط بالحزم[٦٩]:

لا تَتْرُكَنْ للنّاسِ مَوضِعَ شُبْهَةٍ   واحزمْ فَمِثْلُكَ في العَظَائِمِ أَحْزَمُ

وأبو العتاهية يربط بين الابتعاد عن مواضع الشبهات. والشعور القوي بالآخرين وحقوقهم، حتى ليكره المرء لهم ما يكرهه لنفسه[٧٠].

اكْرَهْ لغيرِكَ ما لنفسِكَ تَكْرَهُ   وافعلْ بنفسِكَ فِعْلَ مَنْ يَتَنَزَّهُ

وفي الابتعاد عن المواقف التي تجلب الشك والارتياب، وتبعث على الظنون السيئة الفوز بمقومات الدين، وصيانة للحقوق والعرض على نحو ما يذكر الشاعر[٧١]:

وأُبعِدُ نَفْسِي عَنْ أُمُورٍ تَشِينُهَا   وأَلْزَمُ بَيْتِي وَافِرَ الدّينِ والعِرْضِ

والأمثلة التي يتضح فيها هذا السلوك القويم في حياتنا كثيرة، إذ قد يزل المرء في تصرفات تنافي حرصه على ألا يتعرض للظنون السيئة، كأن يبالغ في الدعابة والمزاح مبالغة تنزع مهابته من قلوب المحيطين به وتدفعهم دفعًا إلى الاستخفاف به، ومن أمثال

---

[٦٩] ابن زيدون، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب: ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق: علي عبد العظيم، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (١٩٥٧م)، ص٣٠٩.

[٧٠] أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق: د. شكري فيصل، دمشق، جامعة دمشق، (١٩٦٥م)، ص٤٢٣.

[٧١] ابن المعتز، عبد الله: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار فراج، القاهرة، دار المعارف، (١٩٥٦م)، ص

www.mtenback.com

العرب في ذلك: «المزاحة تذهب المهابة»[٧٢]؛ وقد يكون في ذلك تعرضٌ للحقد والعداوة أو للاجتراء والاستخفاف، قالوا: «لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فيجتريء عليك»[٧٣]. يضاف إلى ذلك احتمال اكتساب قرناء السوء وارتباط السمعة بهم و«الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة وإفراط الأنس مكسبة لقرناء السوء»[٧٤].

واختيار الصديق ذو أثر حاسم في طبيعة تفكير الناس، وظنونهم، حتى ليتكون انطباع الناس في هذا الصدد على أساس معرفتهم بأصدقاء المرء[٧٥]:

عَنِ الْمَرْءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمقَارَنِ مُقْتَدِ

وما الأمر الإلهي الكريم بالتزام المرأة حدود الاحتشام في الملبس والزينة، والجد في السير والحديث إلا وسيلة تقي المرأة بها نفسها من الارتياب والظن السيئ، ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾[٧٦].

وفي الابتعاد عن عوامل الظن السيئ ودواعيه يقول الشاعر[٧٧]:

أَغْشَى فَتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا ... وإِذَا غَزَا في الجَيْشِ لا أَغْشَاهَا

وأَغُضُّ طَرفِي إِنْ بَدَتْ لي جَارَتِي ... حَتَّى يُوَارِيْ جَارَتِي مَأْوَاهَا

---

[٧٢] كتاب الأمثال: ص٨٥.

[٧٣] المرجع السابق: ص٨٦.

[٧٤] المرجع السابق: ص٢٢٠.

[٧٥] المرجع السابق: ص١٦٤.

[٧٦] سورة الأحزاب: ص٣٢.

[٧٧] الشكعة، مصطفى: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب الشعر بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط٢، (١٩٧٤م)، ص٧٨.

www.mtenback.com

وترتبط عاطفة الحب النظيف العفيف الصادق بحرص المحب على تجنيب محبوبته ظنون الناس السيئة، يقول ابن زيدون[٧٨]:

لَئِنْ فَاتَنِي مِنْكِ حَظُّ النَّظَرْ ... لأكْتَفِيَنْ بِسَمَاعِ الخَبَرْ
أُحَاذِرُ أنْ تتظَنَّى الوشَاةُ ... وقَدْ يُستَدامُ الهَوى بِالْحَذَرْ

ويقول[٧٩]:

سَأقْنَعُ مِنْكِ بِلحْظِ البَصَرْ ... وَأَرْضَى بِتَسْلِيمِكِ المُخْتَصَرْ
ولا أتَخَطَّى التِمَاسَ المُنَى ... ولا أتَغَيَّا اخْتِلاسَ النَّظَرْ
أَصُونُكِ مِنْ لَحَظَاتِ الظُّنُونِ ... وأُعْلِيكِ عَنْ خَطَرَاتِ الفِكَرْ
وأحْذَرُ مِنْ لَحظَاتِ الرَّقِيْبِ ... وقَدْ يُسْتَدَامُ الهَوَى بِالحَذَرْ

والحق أن مثل هذا المسلك أمر بديهي خاصة حين يزل الناس في سوء الظن بالإنسان في جميع أحواله، حتى إنهم لا يتركون مظهرًا من مظاهر السلوك دون أن يجدوه ذا دلالة على نقيصة بالإنسان موضع ظنهم، وحول هذا المعنى يدور قول الشاعر[٨٠]:

ومَا أَحَدٌ مَن ألسُنِ النَّاسِ سَالِمًا ... ولَوْ أنَّهُ كَانَ النَّبِيُّ المطُهَّرُ
فإنْ كَانَ سِكِّيتًا يَقُولُونَ أبكَمٌ ... وإنْ كَانَ مَنْطِيقًا يَقُولُونَ: أَهْذَرُ
وإنْ كَانَ صَوَّامًا وبِاللَّيلِ قَائِمًا ... يَقُولُونَ: زَرَّاقٌ يُرائِي ويُنْكِرُ

إن أحدًا لا يسلم من ألسن الناس، حتى إن النبي ﷺ نفسه تعرض لألسنة الناس وظنونهم، فهم يظنون بالإنسان شرًا على أية حال يكون عليها، إن صمت ظنوا أنه

---

(٧٨) ديوان ابن زيدون ورسائله: ص١٦٨.

(٧٩) المرجع السابق: ص١٦٨.

(٨٠) البيهقي، أحمد بن الحسين: مناقب الشافعي، تحقيق سيد أحمد صقر القاهرة، دار المعارف، ط١، (١٩٧٠م)، ص٢٠.

www.mtenback.com

أبكم، وإن تكلم عابوا كلامه وظنوه هزلاً وهذراً، وإن اجتهد في العبادة غاية الاجتهاد فصام النهار، وقام الليل اتهموه بأنه يرائي بل إنه ينكر ركائز الدين!

فإن كان هذا حالَ الناس مع مَنْ استقام سلوكه، وحسنت سيرته، فما بالنا بظنونهم بمن يجعل نفسه في مواضع الشبهات، ويعرضها ويعرض المحيطين به للظنون وللأوهام؟

وإذا كان هذا موقف الناس مع الصائم القائم فما أحرى من يتصدى لوعظ الناس أن يراقب سلوكه، ويوازن موازنة دقيقة بين ما يوجه الناس إليه، وما يأتيه من أفعال، يقول الشاعر[81]:

يَا وَاعِظَ النَّاسِ قد أصبَحْتَ مُتَّهَمًا ... إنْ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُورًا أَنتَ تَأتِيهَا

إن الظن يتجاوز الاعتقاد ليصل إلى درجة الاتهام، وربما يفقد هذا الواعظ بذلك ثقة الناس فيه، والأخطر من ذلك أن يفقد الناسُ ثقتهم فيما كان يقوله لهم وما كان يوجههم إليه!

وترتبط ظنون الناس عادة بظاهر سلوك بعضهم، فتؤدي الصفات الطيبة والتصرفات الحسنة إلى محبة وحسن ظن،وتؤدي آفات السلوك والتصرف المعيب إلى مذمة وسخط وظن سيئ، كما يقول أبو العتاهية:

الجُودُ مِمَّا يُثْبِتُ الْمَحبَّةْ ... والبُخْلُ مِمَّا يُثبِتُ الْمَسبَّةْ

وترتبط الفضائل بهذا الحرص على تجنب مواضع التهمة والارتياب، والقدوة المتبعة والنموذج المحتذى في ذلك هو رسول الله ﷺ، إذ روي أنه كان يعطي كل من

(81) الراغب الأصبهاني، الحسين بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء بيروت، مكتبة الحياة، ط١، (١٩٦١م) ج١، ص١٣٢.

www.mtenback.com

جلس إليه، وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه وذلك في مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسألته وتوجهه للجالس إليه[٨٢].

وقد وجه ﷺ إلى أن يجنب أفراد المجتمع بعضهم بعضًا الظنون والأوهام والوساوس، فقال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»[٨٣].

إن مثل هذا التصرف قد يدفع الثالث - غير المتحدَّث إليه - إلى الظن بأن صاحبيه يدبران له أمرًا أو يسخران منه، أو أن منزلته لديهما لا تبلغه الاستماع إلى هذا الحديث الخاص. فالرسول يوجه إلى مظهر سلوكي مهذب غايته الصيانة من الظنون السيئة التي تهدد علاقات الأفراد فيما بينهم تهديدًا!

وإكرام الضيف فضيلة ترتبط بالحرص على تجنب مواضع التهمة والارتياب، والابتعاد عن مظنة الشح والبخل. يقول الشاعر[٨٤]:

كَيفَ احتِيالِي لبَسْطِ الضَّيْفِ مِن حَصَرٍ ... عِنْدَ الطَّعَامِ فَقَدْ ضَاقَتْ بِهِ حِيَلِي

أخَافُ تَرْدَادَ قَولِي «كُلْ» فَأقطَعُهُ ... والسَّكْتُ يُنْزِلُهُ مِنِّي عَلَى البَخَلِ

فالشاعر وقد خلصت نيته، وصح عزمه على إكرام ضيفه، يخشى أن يظن به هذا الضيف بخلاً، أو يتوهم أنه لا يحسن البر به ولا يكرم معاملته، فهو يخاف إن كرر دعوته إلى الإقبال على الطعام أن يقطع عليه طعامه، ويخشى كذلك حال سكوته، أن يُظن به بخلاً لعدم دعوته إلى الطعام.

---

[٨٢] إحياء علوم الدين: ١٩١/٢.

[٨٣] البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: الآداب، دراسة وتحقيق محمد أحمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، (١٩٨٦م)، ص١٩٠.

[٨٤] ابن هرمة، إبراهيم: شعر ابن هرمة القرشي، تحقيق: محمد نافع، وحسين عطوان، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، (١٩٦٩م)، ص١٨٢.

www.mtenback.com

وهذا الموقف يمثل نمطًا طريفًا من محاسبة النفس في كل حال، وهي محاسبة تتخذ مما يظنه الناس معيارًا نحكم به على ما يصدر عنا من تصرفات، ورصد دقيق لـردود الفعل الناجمة عن هذه التصرفات:

ويمدح هذا الشاعر رجلاً يسبق فعلهُ ظنَّ سائله(٨٥):

يَسْبِقُ بِالفِعْلِ ظَنَّ سَائلِه وَيَقْتُلُ الرَّيْثَ عِنْدَهُ العَجَلُ
مَا قَالَ أَوْفَتْ بِهِ مَقَالَتُهُ عَفْوًا وَلَمْ تَعْتَرِضْ لَهُ العِلَلُ

فهذا الشخص كريم، يبادر إلى العطاء قبل أن يتسرب ظنّ سيئ في نفس سائله أنه قد لا يمد له يد العون، وهو مظهر من مظاهر الفضيلة، يضاف إليه كالوفاء بالعهد، وعدم التعلل بالحجج والمعاذير، وهي جميعها صفات حسنة تقي صاحبها وقوعه موقع الظن السيئ المريب.

ومما يوضح أن القيم الأخلاقية على اختلافها تلتقي فيما بينها في نهاية الأمر، وأن من ثمارها المرتجاة الوقاية من إساءة الظن بالآخرين، والوقاية من التعرض لظنونهم السيئة، قول الشاعر(٨٦):

أُحِبُّ مكَارِمَ الأَخْلاقِ جَهْدِي وَأَكْرَهُ أنْ أَعِيبَ وأنْ أُعَابَا
وأَصْفَحُ عَنْ سِبابِ النَّاسِ حِلمًا وشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى السِّبَابَا

كما تقترن مظاهر الخلق الذميم بالوقوع تحت وطأة ظنون الناس وسخطهم، على نحو ما نفهم من قول الشاعر(٨٧):

---

(٨٥) المرجع السابق: ١٦٤.

(٨٦) الأسدي، الحسين بن مطير: شعر الحسين بن مطير الأسدي، جمعه وحققه الدكتور محسن غياض، بغداد، منشورات وزارة الإعلام، (١٩٧١م)، ق٧.

(٨٧) الوراق، محمد بن حسن: ديوان محمد بن الحسين الوراق، جمع وتحقيق عدنان راغب العبيدي، بغداد، دار البصري، (١٩٦٩م)، ق ٢.

www.mtenback.com

التِّيــهُ مَفْسَــدَةٌ للدِّيــن مَنْقَصَـــةٌ   للعَقْــلِ مَجْلَبَــةٌ لِلــذَّم والسُّـــخَطِ
مَنْعُ العَطَاءِ وبَسْطُ الوَجْهِ أَحْسَنُ مِـــنْ   بَذْلِ العَطَاءِ بوَجْـــهٍ غَـــيْرِ مُنْبَســـطِ

إن الندم والسخط يردفان الظن السيئ الذي يظنه الناس بمن زل في التيه والكبر والغرور، ولا يدري أن ظنون الناس فيه لا يوجهها عطاؤه المادي بقدر ما يرفع منها حسنُ تعامله، ورقة حاشيته ودماثة خلقه، وتواضعه وبشره.

ومما يعلّمنا ضرورة التصرف بإيجابية حال التعرض لموقف قد يجلب علينا سوء ظن الناس بنا ما فعله الرسول حين كان معتكفًا فأتته زوجه صفية تزوره فلما قامت قام معها ليوصلها إلى منزلها ليلاً فرآه رجلان فأسرعا السير فخاطبهما النبي: «إنها صفية بنت حيي»[٨٨].

إن الصحابيين الجليلين لم يتسرب إلى نفسيهما شيء من الظن، حتى إنهما قد تعجبا حين ذكر لهما النبي ﷺ أن التي كانت معه هي صفية زوجته، إلا أن هذا التصرف يعلمنا ألا ننتظر حتى يقر الظن السيئ في نفوس المحيطين بنا، وأن نبادر إلى رده، حتى قبل أن يتكون ويهجس في النفس وذلك وقاية لكرامة المرء وسمعته، وحفظًا لسلوك المجتمع القويم، وأعرافه وتقاليده.

ومن مظاهر هذه الإيجابية أن يبتعد المرء ابتداء عن مواطن الشبهات، كما يقول الشاعر[٨٩]:

وَدَعْ مَـــا يريبُـــكَ لا تَأْتِـــهِ   وجُـــزْهُ إِلَـــى كُـــلِّ مَـــا لا يَرِيْـــبُ

وتمتد آثار هذه الإيجابية، فيراقب المرء تصرفاته بدقة، خشية تعرض من يحب للريبة والظنون، ويكون سلوكه كفيلاً بقهر نزوع النفس إلى الأنانية وحب الذات، فيدفعه التفكير الغيري إلى الوعي بحقوق الآخرين.

---

(٨٨) أبو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، القاهرة، دار الحديث، (١٩٨٨م)، ج٤، ص٣٠٠.
(٨٩) أبو العتاهية: أشعاره وأخباره، ص٣١.

www.mtenback.com

يقول الشاعر(٩٠):

اللهُ يَعْلَمُ مَا أردتُ بهجرِكُمْ ... إلاّ مُصَانَعَةَ العَدُوّ الكَاشحِ
وعَلِمْتُ أَنَّ تباعُدِي وتَسَتُّري ... أوْفى لوِصْلِكِ مِنْ دُنُوٍّ فاضِحِ

ويقول(٩١):

فأُقسِمُ مَا أرَدْتُ الهَجْرَ إلا ... لأَصْرِفَ عَنْكِ مَكْرُوهَ المَقَالِ
إذا خِفْنَا بُغَاةَ النَّاسِ كُنَّا ... عَلَى حَالِ الصَّرِيمَةِ والتَّقَالِي

وقيمة العفة ظاهرة في الأبيات وواضح فيها الارتباط بين هذه الفضيلة مع الوعي باجتناب مواضع الظن السيئ.

ويمكننا القول عامة إن ثمة ثمرة يظفر بها المرء إن هو حرص على اجتناب ظنون الناس السيئة به، وهي أن يستقيم سلوكه ويتحقق في نفسه لون من الرقابة الذاتية على الأفعال والتصرفات، قال رسول الله ﷺ: «ما كرِهتَ أن يراه الناسُ منك فلا تعملْه إذا خلوَت»(٩٢).

وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى حين قال(٩٣):

إذَا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَومًا فَلاَ تَقُلْ ... خَلَوْتُ ولَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبُ

(٩٠) ابن الأحنف، العباس: ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق: عاتكة الخزرجي، القاهرة، دار الكتب، (١٩٤٥م)، ١٤٤.

(٩١) المرجع السابق: ص٤١٩.

(٩٢) لباب الآداب: ص٨.

(٩٣) أبو نواس، الحسن بن هاني: ديوان أبي نواس، تحقيق: وضبط وشرح أحمد عبد المجيد الغزالي، القاهرة، شركة مصر، (١٩٥٣م)، ص٦١٥.

www.mtenback.com

وإذا اجتنب المرء مواضع الشبهات، وتصرف بإيجابية لينأى عن الظنون السيئة أن تلحق به، فإنه سيظفر حتمًا بحسن السمعة، التي هي خير ثروة يحرزها المرء لآله.

يقول الشاعر[٩٤]:

خَيْرُ مَا وَرَّثَ الرِّجَالُ بنيْهِم ... أَدَبٌ صَالِحٌ وحُسْنُ ثَنَاءِ

هَو خَيْرٌ مِنَ الدَّنَانِيرِ والأَوْرَاقِ ... في يَوْمِ شِدَّةٍ أوْ رَخَاءِ

تِلْكَ تَفْنَى والدِّينُ والأَدَبُ الصَّا ... لِحُ لا يَفْنَيانِ حَتَّى اللِّقَاءِ

وقد يتجاوز المرء حد الاعتدال، فيبالغ في الاهتمام برأي الناس عنه، وظنونهم فيه، فيزل سلوكه في الافتعال والتكلف، وتكون النتيجة المترتبة على ذلك ظن سوء يقر في نفوس المحيطين به!

وقد ضرب ابن حزم طائفة من الأمثلة التي تكشف لنا عن هذا الأمر، فقال محذرًا: إياك والامتداح، فإن كل من يسمعك لا يصدقك وإن كنت صادقًا، بل يجعل ما سمع منك من ذلك في أول معايبك! وإياك والتفاخر! فإنك لا تحصل من ذلك إلا على تكذيبك أو احتقار من يسمعك!

وإياك ووصف نفسك باليسار، فإنك لا تزيد على إطماع السامع فيما عندك! من سبب للناس الطمع فيما عنده لم يحصل إلا على أن يبذله لهم، ولا غاية لهذا. أو يمنعه فيلومونه ويعادونه، فإذا أردت أن تعطي أحدًا شيئًا فليكن ذلك منك قبل أن يسألك، فهو أكرم وأنزه وأوجب للحمد»[٩٥].

---

[٩٤] ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، صححه وراجعه: عبد الرحمن محمد عثمان، القاهرة، العاصمة، ط٢، (١٩٦٨م)، ج١ ص١٠١.

[٩٥] ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد: الأخلاق والسير، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي، القاهرة، دار المعارف، ط١، (١٩٨١م)، ص٢٢٦-٢٢٨.

www.mtenback.com

أما ابن المقفع فينصح من أراد أن يكون «داهيًا»فيقول: «إن أردت أن تكـــون داهيًا فلا تحبَّن أن تسمى داهيًا، فإنه من عرف بالدهاء خاتل علانية وحذره الناس حتى يمتنع منه الضعيف، وإن من أرب الأريب دفن أربه ما استطاع حتى يعرف بالمسامحة في الخليقة والاستقامة في الطريقة، ومن أربه ألا يؤارب العاقل المستقيم له الذي يطلع علـــى غامض أربه فيمقته عليه »[٩٦].

والاعتدال يحتم علينا الوعي بأن «رضا الناس غاية لا تدرك»[٩٧] والأمر منوط بأدائنا عملنا على خير وجه، وابتعادنا ما أمكن عن مواضع الريبة والاتهـــام، جـــاء في أمثال العرب: «افعل كذا وخلاك ذم» أي إنما عليك أن تجتهد في الطلب وتعذر لكيـــلا تذم فيها وإن لم تقض حاجة[٩٨].

وورد في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي».

يتجلى الظن، ويترك تأثيره في مجالات كثيرة من حياة الإنسان. وقد مر قبـــلاً في طبيعة الظن وأثره على صعيد الذات، وذلك في الظن بالنفس ومراقبتها، ووقايتها مـــن مواضع الريبة والظنون السيئة. سواء تجاوزنا نطاق الذات الضيق، انطلاقًـــا إلى آفـــاق حياة الإنسان في الكون الذي يحيا في رحابه فإن أهم ما يصادفنا هو ظن الإنسان بالله. وللتوكل ارتباط وثيق بحسن الظن بالله، ويلوح هذا المعنى من مجرد التأمل في المدلـــول اللغوي للفظ التوكل، فهو مشتق من الوكالة، يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه، واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكول إليه وكيلاً، ويسمى المفوض إليه، متوكلاً عليـــه،

---

[٩٦] ابن المقفع، أبو محمد عبد الله روزبه بن داذويه: الأدب الكبير، بيروت، دار مكتبـــة الحيـــاة، (د.ت) ص٣٠٤.

[٩٧] كتاب الأمثال: ص٢٧٧.

[٩٨] المرجع السابق: ص٢٢٩.

www.mtenback.com

مهما اطمأنت إليه نفسه، ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزًا وقصورًا، فالتوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده[٩٩].

والتوكل المرتبط بإحسان الظن بالله، واليقين بقدرته التي لا تحد مستند إلى الأسباب، مبتعد عن التواكل والإهمال. وقد يُظَن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين؟! إنما يظهر تأثير التوكل في حركة الإنسان وسعيه بعلمه إلى مقاصده إما أن يكون لأجل جلب نافع مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع موجود عنده كالادخار، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض»[١٠٠] والنفس الإنسانية ميالة بالفطرة إلى معرفة ما سيحدث مستقبلاً. ومن حَسُنَ ظنه بالله أراح نفسه من التفكر في أحداث المستقبل المغيبة، وأدرك أن الغيب لا يعلمه إلا الله وحده، واطمأنت نفسه باليقين الراسخ أن الله لن يقدِّر له إلا خيرا، وكان إحسان الظن بالله ومشيئته بوجه التطلع الفطري للنفس إلى معرفة ما غيب عنها توجيهًا يحقق لها السكينة والرضا.

ومن ساء ظنه بالله غفل عن أن الغيب كله بيد الله وفي خاصة علمه، فالتمس سبلاً لمعرفة ما يحدث له في المستقبل، وهذه سبل فيها استخفاف بالعقل، وإهانة لقيمة الإنسان. ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة حين نؤكد أن الإفراط في الاهتمام بما سيقع في المستقبل من أحداث إنما يصف حالة من «التخلف الحضاري»، ويترقى الفكر الإنساني

---

[٩٩] إحياء علوم الدين: ٤/٢٥٩.

[١٠٠] المرجع السابق: ٤ /٢٦٥.

www.mtenback.com

متى عرف الإنسان ربه الواحد القادر على تدبير الكون وفقًا لمشيئته وحكمته، فيعيش الناس حينئذ لخلافة الله وعمارة الأرض ويجدون أن كل ما يمر بهم من أحداث لا تعد إلا وجوهًا للخير الذي يريده الله بهم. ومن العجيب أن تظهر نوازع الارتداد إلى الوراء، والنكوص إلى مرحلة الفكر البدائي الساذج وذلك بالتلهف إلى معرفة الغيب، وبالتوجس من أحداث المستقبل.

وقد مدح أحد الشعراء رجلاً بأنه «يستهدف المستقبلات بظنه، وذلك في قوله[١٠١]:

يَسْتَهدِفُ المسُتَقْبَلاتِ بِظَنِّهِ ... فَيكَادُ يُصْمِي اليَوْمَ مَا يرمِي غَدا

فهذا الممدوح قادر على قراءة طبيعة واقعه المعاش، فيستطيع أن يتوقع ما قد يحدث في المستقبل، واعتماده في ذلك إنما يكون على عقله وتفكيره، لا على أدوات الظنون الكاذبة فيجتهد في التماس الأسباب المؤدية به إلى ما يريد في مستقبله، فما يريد أن يصيبه غدًا يلتمس أسباب إصابته ونيله اليوم.

ويرد هذا النموذج الإيجابي الرشيد مواجهًا لنموذج سلبي عاجز لا يكتشف أصحابه ما تنطوي عليه الأيام من تحول وصيرورة، فيركنون إلى حاضرهم دون تفكير في مجيء المستقبل ولا في أثر مرور الأيام والليالي، وهو ما يكشف مظهراً من مظاهر الاغترار والانخداع، يقول الشاعر[١٠٢]:

أَحَسَنْتَ ظَنَّكَ بِالأَيَّامِ إِذْ حسُنتْ ... ولَم تَخَفْ غِبَّ مَا يَأْتِي بِهِ القَدَرُ

وسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الكَدَرُ

---

[١٠١] الرصافي البلنسي، أبو عبد الله محمد بن غالب: ديوان الرصافي البلنسي، جمعه وقدم له: د. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة ط١، (١٩٦٠م)، ص٦٣.

[١٠٢] الراغب الأصبهاني، الحسين بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، بيروت، مكتبة الحياة، (١٩٦١م)، ج٤ ص ٣٨٨.

www.mtenback.com

إن ارتباط حسن الظن بالله بالإيمان يجعل الإنسان يقدر ما يهيب به من أسباب تقديرا دقيقًا، مؤمنًا أن القدر إذا حل فلا محيص عنه، « إذ لا ينفع حذر من قدر»[١٠٣] و«من مأمنه يؤتى الحذر»[١٠٤] فالحذر والتحوط من أجل الفرار من شيء قد كتبه الله لا يرد من هذا المكتوب شيئًا.

ويعد القلق على الرزق من أظهر الأسباب التي تدفع الناس إلى التطلع إلى معرفة الغيب، مما قد يشير إلى نوع من سوء الظن بالله، فالمتطلعون إلى معرفة ما يستكن لهم من رزق في الغيب كأنهم يشككون في رحمة الله بهم، وكأنهم يستريبون ما تكفل به سبحانه من توزيع للأرزاق على العباد. ويفوت هؤلاء أن حظ الإنسان من الرزق لا يمكن أن يصير إلى غيره، قال بعض العلماء: «لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما كتب الله لك»[١٠٥]. والعاقل من فطن إلى أن الرزق محدد كالنهاية المحتومة، إن حان وقتها فلا تتأخر عنه أبدًا.

يقول الشاعر[١٠٦]:

إِلَيْكِ فَمَا حَظِّي لِغَيْرِي بِصَائِرٍ ... ولا أَجَلِي إِنْ حُمَّ عَنِّي بِقَاصِرِ

أَعِفُّ وأَسْتَغْنِي وإِنِّي لَمُقْتِرٌ ... فَتَسْتُرُ عِفَّاتِي عَلَيَّ مَقَاتِرِي

إن الشاعر يملؤه اليقين أن رزقه المقسوم له لا يمكن أن يصير إلى غيره بحال، فالرزق مثله مثل الأجل حدده الله عز وجل للإنسان تحديداً يغنيه عن الانشغال به. ويبرز الشاعر الثمرة المترتبة على هذا اليقين، كما تنعكس على سلوكه، فهو مع فقره

---

(١٠٣) كتاب الأمثال: ص٣٢٧.

(١٠٤) المرجع السابق: ص٣٢٧.

(١٠٥) إحياء علوم الدين: ٤/٢٤٥.

(١٠٦) طبقات الشعراء: ص١٨٨.

www.mtenback.com

حريص على العفة والاستغناء عما في أيدي الخلق، وهو ما يُبقي ماء وجهه موفـــورًا، يبقي سمعته بمنأى عن هواجس الظنون، إذ تستر عفافُه عليه مقاتره، والرزق مقســـوم يساق إلى أصحابه سوقًا، وفي تأمل حوادث الحياة اليومية ما يؤكد ذلك، على نحو مـــا لاحظ الشاعر حين قال[١٠٧]:

أفي طَلَبِ الدُّنْيَـــا وَرَبُّـــكَ بِـــالَّذي ... يَســـيرُ لَـــهُ رَاعٍ عَلَيْـــكَ كَفِيـــلُ

أَلَيْسَ ضَعِيفُ القَـــوْمِ يَأْتِيـــه رِزقُـــهُ ... يُسَـــاقُ إِلَيْـــهِ والبِـــلاَدُ مُحُـــولُ

و لهذا فإن الظن في رزق الله أمر لا طائل وراءه، وهذا الظن مرتبط بطبيعة نظرة الإنسان إلى المال، ووعيه بوظيفته وحركته في الحياة، وبذلك يتحدد موقفه منه يقـــول الشاعر[١٠٨]:

مَنْ ظَنَّ بِاللهِ خَـــيْرًا جَـــاء مُبْتَدئًـــا ... والبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الَمـــرْءِ بِـــاللهِ

إن من حَسُنَ ظنه بالله، وأيقن أن ما كتبه الله له من رزق فإنه مدركه لا محالة لم يمسك ماله خشية الإنفاق، بل أنفقه إنفاق الجواد الكريم، وهنا يحضرنا «أنفق بـــلالُ ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً»[١٠٩].

أما من ساء ظنه بالله، واضطرب إدراكه لطبيعة الرزق المقسوم فهو يبخل بماله ويخشى إنفاقه، إذا لا يطمئن إلى إخلاف الله عليه. والبخل يكون لدى هذا الرجل سببًا يأخذ به لوقاية ماله من النقصان والزوال، وفاته أن مثل هذه الأسباب المبنيـــة علـــى الظنون والريبة إنما يؤدي دائمًا إلى خداع صاحبها. وفي ذلك يقول الشاعر[١١٠]:

---

[١٠٧] البيهقي، إبراهيم بن محمد: المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار نهضـــة مصر، للطبع والنشر، (١٩٦١م)، ج٢، ص٣٧٩.

[١٠٨] ديوان محمد بن حسن الوراق: ١٧٦.

[١٠٩] كتاب الأمثال: ١٦٤.

[١١٠] ديوان ابن زيدون: ص٥٧٨.

www.mtenback.com

أَلَـــمْ تَعْلَـــمْ بِـــأَنَّ الدَّهْـــرَ يُعْطِـــي بَعْـــدَ مَـــا يَمْنَـــعْ
وَأَنَّ السَّـــعْيَ قَـــدْ يُكْـــدِي وَأَنَّ الظَّـــنَّ قَـــدْ يَخْـــدَعْ
وكَـــمْ ضَـــرَّ امْـــرأً أَمْـــرٌ تَوَهَّـــمَ أَنَّـــهُ يَنْفَـــعْ!

إن حسن الظن خير ما يعتمد عليه الإنسان، فأسبابه التي يـأخذ بهـا عرضـة للنجاح أو الإخفاق، فقد يسعى المرء في أمر يظن أنه خير ويفشل سعيه، ويخدعه ظنـه، فيكون الأمر الذي توسم فيه النفع والفلاح سببًا في الضرر والخذلان. وتبلـغ أهميـة التعلق بالمال حدًّا يجعل الإنسان عرضة للحرص على الدنيا والطمع في العيش.

وفي كتب التراث قصص تشهد لأصحابها ما حازوه من حسن الظـن بـالله، وتوكل عليه ويقين مطمئن بعطائه، فقد قص يحيى ابن الشاعر عروة بن أذينة أن أبـاه ومجموعة من الشعراء أتوا هشام بن عبد الملك، فقال هشام لعروة: ألست القائل:

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي أَنَّ الذي هُوَ رِزْقِي سـوف يَـأْتِينِي
أَسْـعَى إِلَيْـهِ فَيُعنِينِـي تَطَلُّبُـهُ وَلَـوْ قَعَـدْتُ أَتَـانِي لا يُعَنِّيْنِـي

ثم قال له: أفلا جلست حتى يأتيك ؟! فسكت أبي فلم يجبه، فلما خرجـوا جلس أبي على راحلته حتى قدم المدينة وتنبه هشام فأمر بجوائزهم ففقد أبي فسـأل عنه، فأخبر بانصرافه فقال: «لا جرم والله ليعلمن أن ذاك سيأتيه في بيته، فأضعف له ما أعطى واحدًا من أصحابه»[111].

ومن مظاهر سوء الظن إعجاب المرء بذاته، ونسبة النعمة التي يرفل فيها لجهده، وقد أشار عبد الحميد الكاتب إلى ذلك في رسالته إلى الكُتّاب حيث قاله لهم: إنـه إن ظن منكم ظان أو قال قائل إن الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضـل

[111] مجالس ثعلب: ٤٣٣/٢.

www.mtenback.com

حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرض بظنه ومقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير خاف![١١٢].

إن الشفيق بحسن ظن مولع:

يترك الظن آثاره على علاقة الإنسان بأفراد مجتمعه الصغير، وهو الأسرة، ويهمنا أن نلقي الضوء على أبعاد هذا الظن، وصوره المختلفة التي يتجلى فيها، وآثاره على التعامل في نطاق الأسرة الواحدة.

وثمة لون من الظنون ينتاب نفوس أصحاب المسؤولية من الآباء والأمهات والإخوة الكبار على منْ عهد إليهم برعايتهم، وهو ظن وليد المحبة والإشفاق، على نحو ما يشير المثل العربي: «إن الشفيق بسوء ظن مولع»، «وذلك أن المعني بشأن أخيه لا يكاد يظن به إلا المكاره والحدثان كنحو من ظنون الوالدات»[١١٣].

ينبه هذا اللون من الظن إلى ما يستقر في النفس من محبة واهتمام، وما ينتابها من إحساس بتهيب المسؤولية، ويعد هذا الظن مما يوجد في النفس الإنسانية بالطبيعة والغريزة، وإليه يعزى الفضل في تحري الآباء والأمهات أسباب صيانة الصغار عن الحوادث والمكاره، وحمايتهم من المساوئ والأخطار خاصة حين يكونون في سنوات الطفولة الأولى.

ومع نمو الأطفال وبلوغهم بدايات مرحلة الشباب يستحيل هذا اللون من الظن إلى الحرص على «رقابة» سلوك الأبناء، لإبعادهم عن أصدقاء السوء، ولوقايتهم مما يفشو في المجتمع من أمراض خلقية، ومعايب سلوكية.

وقد يضيق الأبناء من هذه الرقابة، خاصة حين تشتد في نفوسهم وطأة المراهقة، ويستبد بهم اندفاع الشباب، وهنا يأتي دور الآباء في ممارسة دور المسؤولية على نحو

---

[١١٢] بدائع السلك ١/٢٨٢.

[١١٣] كتاب الأمثال: ١٨٤.

www.mtenback.com

يتسم بالقصد والاعتدال، وينحو منحى الخفاء وعدم المباشرة، مع إشعار الأبناء أن تحري هذه الظنون السيئة للوقاية منها لا يكون إلا بدافع المحبة والرغبة في العيش بلا مخاطر ولا منغصات.

ويضاف إلى ذلك بُعد مهم ينبغي أن يفطن إليه الآباء، وهو ضرورة الوعي بتغير ظروف الحياة ومعطيات الواقع، مما يجعل طبيعة التفكير والتوجيهات لدي الأبناء مغايرة لما كان الحال عليه لدى الآباء، وعلى الآباء أن يفطنوا لذلك إلى أهمية إعطاء أبنائهم قدراً من الحرية يتيح للشخصية أن تنضج، فلا تظل رقابة الآباء محكمة مستمرة على نحو يزرع في نفوس الأبناء قدراً من الاتكالية والاعتماد على الآخرين، فضلاً عن ضمور المواهب تحت وطأة هذه الرقابة المستديمة التي لا تكاد تدعهم يقدمون على فعل شيء وإنجازه من تلقاء أنفسهم! وداخل محيط الأسرة الواحدة تنشأ علاقات مبناها التوتر والارتياب، وهو ما يفسح مجالاً رحبًا يمكن للظنون السيئة أن تفشو فيه، وإذا أردنا أن نضرب مثالاً كاشفًا عن ذلك فيمكننا أن نتصور طبيعة العلاقة بين الحماة وزوجة الابن. وفي ذلك يقول الشاعر[١١٤]:

إنَّ الحَمَاةَ أُولِعَتْ بِالكَنَّةِ وَأُولِعَتْ كَنَّتُهَا بِالظَّنَّةِ!!

والواجب في مثل هذه الحالات أن يردع كلا الطرفين نوازع التوجس والارتياب في نفسه ليئد الظنون الباطلة في مهدها، ولا يتركها تستشري لتكون مع مرور الوقت حالة من العداء!

ويتحقق ذلك بأن تنزل الحماة زوجة ابنها منزلة ابنتها، وتعي أن لها دوراً في إعادة ابنها، و على زوجة الابن أن تعد الحماة أمًّا لها، وتقر لها بالفضل في مجيء زوجها إلى الوجود، وتجد أن معاملتها فرصة سانحة تظفر بها برضا الله وثوابه الجزيل وقد غدت عونًا لزوجها في بر أمه، والقيام بهذا الواجب الذي أمر الله به.

---

[١١٤] كتاب الأمثال: ٣٥٤.

www.mtenback.com

ويتخذ الظن في علاقة الإنسان بأسرته بعداً أرحب، حين يحرص على وقايتها من الظنون السيئة، فكما أنه يحرص على نقاء سمعته من هذه الظنون فإنه يحرص لذلك في إطار مسؤوليته الأسرية، على وقاية الأهل والعشيرة من الشيء نفسه. يقول الشاعر[١١٥]:

إذَا كُنْتَ لَمْ تَعْبَأْ برأْيٍ ولَمْ تُطِعْ ... إلَى اللُّبِّ أوْ تَرْعَى إلَى قَوْلِ مُرْشِدِ

ولا تَتَّقِي ذَمَّ العَشِيرَةِ كُلِّهَا ... وتَدْفَعُ عَنْهَا باللِّسَانِ وَباليَدِ

وتَصْفَحُ عَنْ ذِيْ جَهْلِهَا وتَحُوطُهَا ... وتَقْمَعُ عَنْهَا نَخْوَةَ المُتَعَهِّدِ

وتَنْزِلُ مِنْهَا بالمَكَانِ الَّذِي بِهِ ... يُرَى الفَضْلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى المُتَحَمِّدِ

فَلَسْتَ، وإنْ عَلَّلْتَ نَفْسَكَ بالمُنَى ... بِذِي سُؤْدَدٍ بَادٍ وَلا كَرْبِ سَيِّدِ

إن ثمة وسائل ينال بها المرء المكانة والسيادة، حين تتحسن علاقته بأهله وعشيرته، ولعلها تؤول في نهاية الأمر إلى رفعة العشيرة، وحماية مكانتها وسمعتها من أن تنالها هواجس الظنون. والمتأمل في هذه الوسائل يجد أنها تنبع من علاقة الأفراد فيما بينهم، إذ تسود فيهم قيم المودة، والحرص على المشورة، والتسامح، وهي قيم لا تنسجم مع الظن والارتياب. وإذا لم يستجب امرؤ لنصيحة رجل كان يظن بصاحبها سوءًا، فلن تكون القلوب في تسامح وصفاء، بل ستصنع الظنون عداوات لا سبيل للتخلص منها.

وما يقال عن الأهل والعشيرة ينطبق على الأمة في مجموعها، فقد وجدنا في تراثنا القديم شروطًا محددة يجب توافرها فيمن يتقلد «الوزارة»، وهي شروط من أهدافها الابتعاد بقيادة الدولة عن دواعي الظن والارتياب، بما يحقق استقرار الدولة في

---

[١١٥] ابن الأبرص، عبيد: ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: د.حسين نصار، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، (١٩٥٧م)، ص٥٤.

www.mtenback.com

مجموعها، فمن هذه الشروط «كبر النفس» وعلو الهمة، ليحب الكرامة، ويأنف من الفضيحة، فتعز به الدولة، ويحمى جانبها من طوارق الذل والمهانة[١١٦].

وعلى الوزير أن يتحرى «ظهور أثر العفة عليه في اتقاء شره الأكل والنكاح، وأن يكون حسن الملبس جميل الزي، ليجمل في العيون، ويعظم في الصدور»[١١٧].

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه:

لعلنا لا نبالغ حين نذهب إلى أن العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع لها من الأهمية ما للعلاقة داخل الأسرة الواحدة، إذ يترتب على علاقة الفرد بأسرته علاقته بأبناء مجتمعه، كما أنهما يشكلان معًا انتماء الإنسان في صورته الكلية المتكاملة، فالانتماء الأصغر للإنسان لأسرته الصغيرة يوازيه انتماء أكبر في محيط معاملاته.

وإذا كان حديثنا في هذا ينصرف إلى الظن بين الأصدقاء لبيان طبيعته ولتتبع آثاره فإن الإشارة تجدر إلى أن الصداقة هنا يتسع مفهومها ليشمل علاقة المودة والترابط الجامعة بين فردين من أفراد المجتمع، وتضاف إليه علاقة الترابط بين أفراد المجتمع في مجموعها على نحو يقارب مفهوم «الأخوة» في أرحب دلالاته.

ثمة أهمية عظمى لصلة الصداقة الجامعة بين الأفراد، إذ تجلب هذه الصلة الظنون السيئة القبيحة أو السمعة الطيبة العاطرة، وذلك لأن ثمة نزوعًا تلقائيًا للاقتداء يقع بين الصديقين، يقول الشاعر[١١٨]:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ مُقْتَدِ

---

[١١٦] بدائع السلك: ١/١٨٥.

[١١٧] المرجع السابق: ١/١٨٦، ١٨٧.

[١١٨] كتاب الأمثال: ص١٦٤.

www.mtenback.com

فمن الواجب أن يكون اختيار الصديق محكومًا بمعايير خاصة، قد تدفعنا إلى شيء من الاسترابة والظن، إلى أن نتأكد من الصفات الطيبة في الصديق.

يقول الشاعر[١١٩]:

ولا تُظهِرَنْ وُدَّ امْرِئٍ قبلَ خُبْرِهِ وبَعْدَ بَلاءِ المَرْءِ فَاذْمُمْ أوِ احْمَدِ

فوقوع المرء تحت الاختبار قائم على احتمال وجود الصفات الطيبة أو غيرها في الصديق وكأننا لا نسارع في إحسان الظن بكل من نقابل حتى تقوم بيننا وبينة مودة وصلة، بل نتثبت لاختباره أولاً، وجوانب هذا الاختبار يفصلها قول الشاعر[١٢٠]:

لا يُعجِبَنَّكَ صَاحِبٌ حَتَّى تَبَيَّنَ مَا طِباعُهْ
مَاذَا يَضِنُّ بِهِ عَلَيْكَ ومَا يَجُودُ بِهِ اتِّساعُهْ
أَمْ مَا الَّذِي يَقْوَى عَلَيْهِ ومَا يَضِيقُ بِهِ ذِرَاعُهْ
وَإِذَا الزَّمَانُ رَمَى صَفَاتِكَ فِي الحَوَادِثِ مَا دِفَاعُهْ
فَهُنَاكَ تَعْرِفُ مَا ارْتِفَاعُ هَوَى أَخِيكَ ومَا اتِّضَاعُهْ

وطبيعة العلاقة بالصديق يمكن أن تعرض لظنون كثيرة، فلا بد أن تكون معاملة الصديق متحرية البر والإحسان، بما يميزه عن سواه، يقول ابن حزم: «من ساوى بين عدوه وصديقه في التقريب والرفعة لم يزد على أن زهّد الناس في مودته وسهل عليهم عداوته، ولم يزد على استخفاف عدوه له، وتمكنه من مقاتله، وإفساد صديقه على نفسه وإلحاقه بجملة أعدائه»[١٢١].

---

[١١٩] ديوان عبيد بن الأبرص: ص٥٦.

[١٢٠] ديوان ابن قيس الرقيات: ص٣٢٢.

[١٢١] الأخلاق والسير: ص٢٣٣-٢٣٤.

www.mtenback.com

إن عدم خص الصديق بمظاهر من البر والرعاية كفيل بأن يملأ نفسه بالظنون التي ربما تفسد أمر الصداقة، فضلاً عن التعرض لجملة من الظنون السيئة تتعلق بمودة المرء ومكانته. ومن فقد أصدقاءه على هذا النحو عاش وحيداً يتأذّى بشرور الناس الذين يسيئون به الظن على كل حال، وإن لم يرتكب ما يجلب ظنًّا سيئًا يقول الشاعر(١٢٢):

ذَهَبَ الَّذينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِم وَبَقِيتُ فِي خَلَفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ!!
يَتَآكَّلُونَ مَذَمَّةً وخيَانَةً ويُعَابُ قَائِلُهُمُ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ

ولا يخفى أن إكرام العدو هو وضع للشيء في غير محله، فلن يجد المرء أثراً ولا ثمرة لهذا الإكرام مثلما أنه لا يجيء من الشوك عنب! على نحو ما قال الشاعر(١٢٣):

إذا وَتَرْتَ امْرَأً فَاحْذَرْ عَدَاوَتَهُ من يَزْرَعِ الشَّوكَ لا يَحْصُدْ به العِنَبا
إنَّ العَدُوَّ وَإِنْ أَبْدَى مُجَامَلَةً إذا رَأَى مِنْكَ يومًا فُرصَةً وَثَبا!!

والعاقل من يسيء الظن بهذه المجاملة التي يبديها العدو في الظاهر في الوقت الذي يُعِدّ العدة للغدر والأذى.

ولا يتجلى تأثير الظن على العلاقة الجامعة بين أفراد المجتمع كما يتجلى وقت الزلل في الخطأ، فإن خطأ الإنسان في حق أخيه يؤمّن ظرفًا مناسبًا لنشاط الظنون وتنامي الهواجس ومن هنا فإن قدرة المرء على الاستجابة لهذا الظرف هي من أهم الصفات التي يختار على أساسها الصديق، يقول الشاعر(١٢٤):

أُحِبُّ الفتى يَنفي الفَواحشَ سَمْعُهُ كَأَنَّ به عن كُلِّ فاحِشَةٍ وَقْرا

---

(١٢٢) كتاب الأمثال: ص٢٦٤.

(١٢٣) المرجع السابق: ص٢٦٤.

(١٢٤) أبو العتاهية أشعار وأخباره: ص١٦٣.

www.mtenback.com

سَلِيمَ دواعي الصدرِ لا بَاسِطًا يَــدًا وَلا مَانِعًا خَـيرًا ولا قَـائِلاً هُجْـرا

فهذا الصديق ينفي سمعه الفواحش نفياً، وهو ذو طبع سوي بريء من أسباب الشك والريبة.

والصفح عن الزلات خير دليل على بعد الصديق عن العوامل المهيئة لإساءة الظن، فهو إن آلمه موقف من صديقه لا يسارع بإساءة الظن به، بل يلتمس أعذاراً تحفظ لصديقه مكانته في النفس، وتصونه من أن تلحق به الظنون. يقول الشاعر(١٢٥):

أحِبُّ مِن الإخـوانِ كـلَّ مُؤَاتِـي وَفِيٍّ يَغُضُّ الطَّـرْفَ عـن عَـثَراتي

يُوافِقُـني في كُـلِّ خَـيْرٍ أُرِيْـدُهُ ويَحفظُنِـي حَيًّـا وبعـدَ وَفـاتِي

وقد جعل الغزالي من أدب الإخوة أنهم إذا استثقلوا صاحباً يتهمون أنفسهم ويتسببون في إزالة ذلك ببواطنهم لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة في الصحبة(١٢٦).

ولا يستبعد عن الصديق أن يلتزم بإحسان الظن دوماً في صديقه، حتى وإن أنزل نفسه منزلة دون منزلة صديقه، ولهذا فإن أبا عبد الله بن الأزرق يحكم بأن أعقل الرجلين عند أولي الألباب من رَمَى بالعجب وراء ظهره ورأى أن صاحبه أعقل منه، وأحمد في طريقته(١٢٧).

وإن هجس في النفس ظن سيئ فعلى الصديق أن يكذبه، ويقرن تكذيب هذا الظن بالصفح إن ظهر ما يغضب ويسيء.

(١٢٥) المرجع السابق: ص٥٥.

(١٢٦) إحياء علوم الدين ج٤، ص٢١٢.

(١٢٧) بدائع السلك: ٢٨٢/١.

www.mtenback.com

يقول الشاعر[128]:

أَلَمْ تَـرَ أَنِّي إِذا مَـا زَوَى صَدِيقِي مودَّتَه جَانِبَا
وَقَـدْ كُنْتُ أَرْعَى لَـه حَقَّه وَأَطْلُبُ مَرْضَاتَه دَائِبَا
وَإِنْ قَـال هَـزْلاً تَحَمَّلتُه وَإِنْ جَـدَّ أَنْزَلْتُه لاعِبَا
وَأَلتمِسُ العُـذْرَ جَهْدِي لَـهُ وَأَجعَلُ ظَنِّي لـه كاذبَا

إن الصفات الطيبة للصديق تنزل في نفس صديقه منزلة البدهات القارة والحقائق الثابته التي لا تستطيع الظنون أن تنال منها، فإن أخطأ الصديق لم يصح أن يظن به صاحبه سوءًا، بل هو وقت ثم يعود لسابق عهده الذي يعلمه:

صَفَحتُ وَأَعرضتُ حَتَّى يَـؤُوبَ مَا كَانَ مِن حِلْمِه عَازِبَا

وعلينا أن نظن بأصدقائنا وإخواننا الظن الحسن في كل حال فإن هزل الواحد منهم وأساء في هزله تحملناه، وإن جد وأخطأ في جده عددنا هذا الجد لعبًا لا نؤاخذه عليه. وبذلك يفرغ الصديق جهده كله لالتماس الأعذار لصديقه، فإن عز عليه بعد ذلك أن يعذر صديقه، وتسرب إلى نفسه ظن سيئ فإنه يسارع بتكذيب هذا الظن.

ومما يعين على ذلك طبع سليم خالٍ من الشك لا يحفظ الإساءة في نفسه بل ينساها، يقول الشاعر[129]:

أَرى الدَّهْرَ يُنْسِينِي أَحَادِيثَ جَمَّةً أَتتْ من صَدِيقٍ أَو عَـدُوٍّ يُشيعُها

فكأن هذا الشاعر يحفظ سلامة صدره بنسيان ما يسيء من كلام أصدقائه وأعدائه على السواء!

---

[128] لباب الآداب: ص٣٢٢.

[129] ديوان ابن هرمة: ص١٤٥.

www.mtenback.com

وبذلك ينال المرء، مع سلامة الصدر، نقاء السمعة وعلو المكانة، يقول الشاعر[١٣٠]:

وهُجْرِ عدوٍّ كَاشِحٍ قد سَمعتُهُ ... فَكُنْتُ كَمَنْ أَغضَى بعينٍ على قَذَى

تَصامَمْتُ عنه واغتَفَرْتُ مَكَانَه ... فَلَمْ يَعْتَلِقْ بِالجِسْمِ من قِيلِهِ أَذَى!

وقد نصح حكيم ابنه بالتخلق بذلك الخلق، فقال له: يا بني وإن سمعت كلمة من حاسد فكن كأنك لست الشاهد، فإنك إن أمضيتها حيالها وقع العيب على من قالها، وقد كان يقال: إن الأريب العاقل هو الفطن المتغافل، كما قال حاتم الطائي[١٣١]:

وما من شِيمَتِي شَتْمُ ابنِ عَمِّي ... وما أَنَا مُخلِفٌ من يَرتَجِيني

وكلمةِ حاسدٍ من غَيرِ جُرْمٍ ... سمعتُ فقلتُ: مُرِّي فَانْفُذِيني

فَعَابُوهَا عليَّ وَلَمْ تَعِبْنِي ... وَلَمْ يَعْرَقْ لَهَا يومًا جَبِيني

وذو اللوّنين يَلقَانِي طَلِيقًا ... وليسَ إذا تَغيَّبَ يَأْتَلِيني

بَصُرْتُ بعَيْبِهِ فَكَفَفْتُ عَنْهُ ... مُحَافَظَةً عَلى حَسَبِي وَدِيني

والتجاوز عن زلل الصديق وسيلة نضمن بها دوام أخوته، ومهما تعددت أخطاؤه فإننا لا نسيء الظن به بل نعد هذه الأخطاء هفوات، يقول الشاعر[١٣٢]:

لا بِرَّ أَعْظَمُ مِنْ مُسَاعَدَةٍ ... فَاشْكُرْ أَخَاكَ على مُسَاعَدَتِه

وَإِذا هَفَا فأَقِلْهُ هَفْوَتَهُ ... حَتى يَعُودَ أَخًا كَعَادَتِهِ

---

[١٣٠] لباب الآداب: ٣٢٢.

[١٣١] المرجع السابق: ٢٤.

[١٣٢] ديوان محمد بن حسن الوراق: ٣١.

www.mtenback.com

فَالصَّفْحُ عَـن زَلَلِ الصَّدِيْقِ وَإِنْ   أَعياكَ خَيرٌ مِـن مُعانَدتِه

إذا اشتدت الجفوة فلا مجال لذم وليد ظن، بل حرص على الأخذ بأسباب المودة وفي الحرص على الابتعاد بالصديق عن مظان الذم، يقول الشاعر[١٣٣]:

لَسْتُ مِمَّن إذا جَفاهُ أَخُوه   أَظْهَرَ الذَّمَّ أَو تَناولَ عِرْضا
بَل إذا صَاحِبي بَدا لي جَفَاه   عُدتُ بالوُدِّ والوِصالِ لِيَرْضَى
كُنْ كما شِئتَ لِي فَإنّي حَمولٌ   أَنا أولُ مَنْ عن مَسَاوِيك أغضى

وغفران الزلات وسيلة الشاعر ليحول دون وقوعه تحت وطأة الارتياب بصديقه، مادام ظلم هذا الصديق لم يلحق الأذى يقول[١٣٤]:

وأَغْفِرُ للمَوْلَى هَناةً تُرِيبُنِيْ   فما ظُلْمُه - ما لم يَنلْني - بِمُحْقِدي

والتأمل في طبيعة العلاقة بين أفراد المجتمع يهدي إلى الكشف عن أن هذه مرتبطة بنظرة الإنسان إلى المجتمع، فهو يتحرى القيم النبيلة فيه، ويحرص على صداقة من يحوز تلك القيم، ثم إنه لا يفترض مثالية غير متحققة في هذا المجتمع، فأصحاب هذه القيم النبيلة بشر يخطئون ويصيبون، قال المقنع الكندي[١٣٥]:

ابْلُ الرِّجَالَ إذا أَرَدْتَ إخَاءَهمْ   وَتَوَسَّمَنَّ فِعالَهمْ وَتَفَقَّدِ
فَإذا ظَفِرتَ بِذي الأَمانَةِ والتُّقَى   فَبِه اليَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدِ
وإذا رَأَيْتَ وَلا مَحالَةَ زَلَّةً   فَعلى أَخِيكَ بِفَضْلِ حِلْمِكَ فَازْدَدِ

---

(١٣٣) مناقب الشافعي: ص٢٠٠.

(١٣٤) ديوان عبيد بن الأبرص: ص٥٥.

(١٣٥) لباب الآداب: ص٢٤-٢٥.

www.mtenback.com

فالأصل المعتد به في إمكان الصديق على هذا النحو هو «إحسان الظن» كما قال الشاعر[136]:

لو أنني لكَ في الأهواءِ مُخْتارُ   لما جرَتْ بالذي تَشكُوه أَقْدارُ
لكنَّها فِتَنٌ في مِثْلِ غَيْهَبِها   تَعْمَى البصائرُ إنْ لم تَعْمَ أبصارُ
فأَحْسِنِ الظَّنَّ لا تَرْتَبْ بعَهْدِ فَتًى   تَعْفُو العُهُودُ وتَبْقَى مِنه آثارُ

وإذا تسرب الظن إلى النفس، وصدقه العقل، وأخذ به السلوك، فإن ثمة تهديدًا ملحًّا لهذه الصداقة، فالظنون تؤدي إلى الزهد في الأخذ بأسباب المودة، والحفاظ على المحبة، لتبقى النفس بعد ذلك ملأى بالهموم والأحزان. يقول الشاعر[137]:

وَكُنْتُ أَرى أَنَّ تَرْكَ العِتابِ   خَيْرٌ وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَضِيرا
إلى أن ظَنَنْتُ بأن قد ظننتَ   بأَنَّ لنفسيَ أَرْضَى الحَقِيرا
فأضَمَرَتِ النفسُ في وَهْمِها   من الهَمّ هَمًّا يَكُدُّ الضَّمِيرا

والشاعر كان حريصًا على ترك العتاب لِعَدّه مظهرًا للملاحاة يهدد الصداقة التي تجمعه بصديقه إلا أن ظنونًا متبادلة أخذت تهدد هذه الصداقة تهديدًا، فالشاعر ظن أن صديقه يظن أنه يرضى لنفسه الذل والهوان. وكانت النتيجة أن أضمرت النفس همومًا تكد الضمير، وهي نتيجة متوقعة مع ظن مصدق! وقلمًّا سلمت طبائع الناس في مثل هذه الحالات والمواقف ولكن تقدير الأمر بحكمة ووعي سليم هو العلاج الصحيح.

(١٣٦) ديوان ابن زيدون ورسائله: ص٢٠٠.

(١٣٧) ظاءات القرآن: ص٣٧.

www.mtenback.com

تسقط به النصيحة على الظنة:

سنعالج في هذه الجزئية الصلة بين الظن والمشورة وهو ما يعد امتداداً للحديث عن التعامل بين الأفراد داخل المجتمع الواحد، إذ تعد المشورة بعداً اجتماعياً مهماً من أبعاد العلاقة الجامعة بين الأفراد وعلى ضوء الغرض السابق لطبيعة الظن من ناحية، وأبعاد العلاقة بين الأفراد. داخل المجتمع من ناحية أخرى فإنه يمكن القول: إن الصلة بين الظن والمشورة تتمثل في جانبين، الأول: الذات، والثاني: الشخص المستشار.

فظن الإنسان بنفسه يتحكم في توجهه إلى غيره للسؤال وطلب المشورة، فلا يتوهم أنه يحوز الحكمة كلها، بل يجد أن نفسه صغيرة عنده، عندما يجهل الغيب، وقد يزل في بعض النقائص والعيوب مما يحتم عليه قبول النصيحة من الآخرين، قال ذو النون: «ثلاث من علامات التواضع: تصغير النفس معرفة بالغيب، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد»[١٣٨].

وقد نصح أحد الملوك ولده قائلاً: «لا يمنعنك حسن رأيك في ظنك، ولا علو مكانك في نفسك أن تجمع إلى رأيك رأي غيرك، فإن وافق رأيك رأي غيرك ازداد رأيك عندك شدة، وإن خالف رأيك عرضته على نظرك وفهمك، فإن كان غالباً على ما رأيت قبلت، وإن كان متصنعاً استغنيت»[١٣٩].

إن المشورة باب خير عظيم للسائل المستشير، وربما يحرم المرء نفسه من هذا الخير لمبالغته في تقدير نفسه تقديراً يرفعها عن مكانتها الحقيقية، فحسن الظن في الرأي يمكن أن تفهم منه طبيعة تقدير الذات والحكم على التفكير، واعتقاد المرء لنفسه منزلة ليست له يحرمه من نفع المشورة.

---

[١٣٨] السهروردي، يحيى بن حبش: عوارف المعارف، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، (د.ت)، ص١٣٥.

[١٣٩] بدائع السلك ٣٠٨/١.

www.mtenback.com

ومن هنا فقد كانت الحكمة ضالة المؤمن، يبحث عنها أنّى كان مصدرها.

«لم يزل العقلاء على اختلاف مذاهبهم يطلبون صواب الرأي عند كل أحد حتى الأَمَة اللَّكْعاء»[١٤٠] (أي المرأة ذات العقل الضعيف).

ويقودنا الحديث إلى الشق الآخر من الموضوع، وهو الظن بالآخرين، فظن السائل بهم هو الذي يدفعه إلى سؤالهم واستشارتهم، أو هو الذي يتحكم في اختيار من نستشيره. ولأن علاقات الناس شائكة وحساسة ودقيقة فقد تترتب على إبداء المشورة والنصح فطنةٌ تقيد الأخطاءَ وادعاءَ المعرفة فيساء فهم الناصح وتُظَن به الظنون، وقد أدرك العرب دقة هذا الموقف فقالوا: تسقط به النصيحة على الظِّنَّة[١٤١]. أي إن المنصوح قد يتهم ناصحه ويظن به سوءًا والذكي من يستطيع تجنبَ هذا المأزق مع الناس. يقول الشاعر[١٤٢]:

وَكم سُقْتُ فِي آثارِكُمْ من نَصِيحَةٍ وقد يَسْتفيدُ البِغْضَةَ المتنصِّحُ

لا ريب أن سلوك الشك والتوجس والريبة معيب ومؤسف في مقابل الإحسان والرغبة في الإفادة ومحض النصحية للآخرين إلا أن هذا لا يمنع من الحكم بأن المسؤولية قد تقع على الناصح، إذا لم يتخير أسلوبًا يجعل المنصوح أقرب إلى الاقتناع، ووقتًا يجعله أميل إلى الاستجابة.

احتجزوا من الناس بسوء الظن:

عرضنا في ما مضى وجوهًا يتجلى فيها الظن، ورصدنا علاقاته المتشابكة بمجالات حياة الفرد. والحق أن حديثنا عن الظن سيبقى منقوصًا إن لم نتوقف إزاء

---

[١٤٠] المرجع السابق: ٣١٣/١.

[١٤١] كتاب الأمثال، ص٣٠٠.

[١٤٢] إحياء علوم الدين: ٢٢٩/٢.

www.mtenback.com

وجه له يكون الاعتماد عليه حمايةً من الاغترار والانخداع بظواهر التصرفات والسلوك التي تصدر عن ضعاف النفوس، وفي ذلك يقول عمر رضي الله عنه: «احتجزوا من الناس بسوء الظن»[١٤٣] أي لا تثقوا بكل أحد فإنه أسلم لكم، ومنه قولهم: «الحزم سوء الظن»[١٤٤].

إننا لا نعيش في مجتمع منزه يخلو أفراده من النقائص والعيوب وزلات السلوك، بل إن بعضهم مسرفٌ في الضلالة والفساد وحب الأذى للناس، وهنا يكون سوء الظن وسيلة تقي المجتمع من التأثر بأصحاب هذا السلوك المعوج، ولهذا يشترط في حرمة الظن أن يكون المظنون بهم ممن عُرفوا بالصلاح والأمانة، أما من يتعاطون الخبائث والمنكرات فلا يحرم الظن السيئ بهم[١٤٥].

والأمثلة التي يمكن أن نلتمسها من الواقع كثيرة، على رأسها ضرورة إساءة الظن بأصحاب المخازي والمعاصي، كمن يدمنون المخدرات، فهل يمكن أن نحسن الظن بأمثال هؤلاء؟! إن إساءة الظن هنا تمنع أذى متوقعًا يُلْحِقه هؤلاء بمن عداهم. يقول ابن حزم الأندلسي: ما رأينا شيئًا فسد فعاد إلى صحته إلا بعد لَيٍّ (أي جهد ومشقة) فكيف بدماغ يتوالى عليه الفساد كل ليلة؟ وإن عقلاً زيَّن لصاحبه تعجيلَ إفساده كل ليلة لعقلٌ ينبغي أن يُتَّهَم[١٤٦] ويقاس على ذلك من اجترأ على حرمات الله، ومن هنا كانت نصيحة بعض السلف «من استخف بحرمات الله فلا تأمنه على شيء مما تشفق عليه»[١٤٧].

---

(١٤٣) لسان العرب: ص٢٧٦٤.

(١٤٤) المرجع السابق: ص٢٧٦٤.

(١٤٥) عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٧، (١٩٧٨م) ص٢٣٥.

(١٤٦) الأخلاق والسير: ص١١٨.

(١٤٧) زاد المسافر: ص٤٧.

www.mtenback.com

إن حكم المجتمع وعرفه في أن تلك الطائفة يلازمها الظن السيئ والارتياب كفيل بأن يردع أبناءه أن يزلوا في مثل هذه المظاهر السلوكية الفاسدة، وهو في الوقت نفسه حافز قوي يدفع هؤلاء السادرين في الضلالة إلى الأوبة إلى المجتمع من جديد أهلاً للثقة ومحلاً للظن الحسن المحمود، إذ لا ريب أن إحساس المرء أن الآخرين لا يثقون به، ولا يرضون أن يأتمنوه على أمورهم المهمة لهو إحساس موجع لكنه ضروري، إذ يمثل أولى خطوات العلاج.

وقد يكون الظن السيئ وسيلة أهل الطموح حين يقع التنافس بينهم يقول الشاعر:

وسُوْءُ ظَنِّا بِكُلِّ أَخٍ يُقَاسِمْكَ الثَّنَا حصَصَا

وأكثر ما ينطبق عليه هذا النصح ما نراه في أعمال الناس ومصالحهم، كأن تشترك رغبة اثنين من الموظفين في الترقية إلى وظيفة أعلى، أو أن يتجاور تاجران لهما النشاط نفسه، إن سوء الظن في مثل هذه الحالة يكاد يكون سلوكًا تلقائيًّا لا يتخلى عنه إلا من حسن ظنه بالناس حسنًا يتجاوز الحد المعقول، حتى ليكاد يتحول إلى عجز وسذاجة، والتوسط والاعتدال يسمحان بقدر من سوء الظن في مثل هذه الحالات.

والمعيار الذي نطمئن به إلى أننا لم نتجاوز الحد المعقول هو ألا نطلق لظنوننا العنان، بما يجعلنا نقف من منافسينا في عملنا موقف الخصومة والعداء.

والسؤال هنا: ما الفائدة المرتجاة من الظن السيئ ولماذا لا نفترض في المحيطين بنا حسن النية دومًا حتى وإن وقفوا منا موقف التنافس على غاية واحدة؟

إن سوء الظن في بعض الأحيان يقي صاحبه من عواقب غير محمودة يمكن أن تؤلم نفسه إن لم يكن محترزًا بشيء من الحيطة والحذر. يقول ابن حزم: «من امتُحِن بأن يخالط الناس فلا يلق بوهمه كله إلى من صَحِبَ، ولا يبق منه إلا على أنه عدو مناصب، ولا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب من غدر إخوانه وسوء معاملتهم، مثل ما

www.mtenback.com

يترقب من العدو المكاشف، فإن سلم من ذلك فلله الحمد، وإن كانت الأخرى ألفي متأهبًا و لم يمت همًّا»[١٤٨].

ومتى حامت الشبهات، وتكاثفت الظنون حول أمر من الأمور فالأولى ترك هذا الأمر برمته ففي ذلك مَنْجاةٌ من مشكلات يرد بعضها إثر بعض، ومما يدلل على صحة ذلك تلك النصيحة التي يقول الحكيم فيها «السوداء بنت السيد أحب إلي من الحسناء بنتِ الظنون»[١٤٩] (أي المتهمة).

ولا يضر حسن الظن في غير موضعه كما يضر مع ولاة الأمر، الذين استرعاهم الله على حقوق العباد إذ يترتب عليه ضياع الحق وغياب العدل ومن هنا كان توجه عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في رسالته في القضاء: «المسلمون عُدُولٌ بعضُهم على بعض، إلا مجلودًا في حد، ومجربًا عليه شهادة زور، أو ظنينًا في ولاء أو نسب»[١٥٠].

فثمة حالات حددها عمر بن الخطاب رضي الله عنه تحول دون قبول الشهادة، وهي حالات يغلب على ظن القاضي فيها أن الشاهد لا يشهد بالحق ولا يتحرى الصدق والعدل، وإحسان الظن في مثل هذه الحالات سيؤدي إلى ضياع حقوق العباد التي استرعى الله القضاة عليها، وغياب العدل الذي هو الغاية الأولى لكل قاض.

وما زلنا نسمع بين الحين والحين مآسي فاجعةً ضاعت فيها حقوق اليتامى والأرامل والضعفاء بسبب محترفي شهادة الزور. ولو علم هؤلاء الشهود أن تجريب

---

[١٤٨] الأخلاق والسير: ١٤٤.

[١٤٩] لسان العرب: ٢٧٦٤.

[١٥٠] المبرد، أبو العباس بن يزيد الأزدي: الكامل، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (١٩٨١م)، ج١، ص٣.

www.mtenback.com

شهادة الزور عليهم كفيل بإسقاط شهادتهم إلى الأبد لفكروا ألف مرة في هذه الشهادة وحقها، لكيلا يفقدوا اعتبارهم ومكانتهم في مجتمعهم.

ولخطورة الآثار المترتبة على هذا الأمر فإن على القاضي أن يسيء الظن بما يظهر له من مظاهر سلوك صادرة عن الخصوم، ويحكي لنا ابن حزم الأندلسي عن تجربة شخصية له في هذا الصدد، يقول: «ينبغي للعاقل أن لا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكي المتظلم وتشكيه، وشدة تلويه وتقلبه وبكائه، فقد وقفت من بعض من يفعل هذا وأنا على يقين أنه الظالم المعتدي المفرط الظلم، ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكي، مظهراً لقلة المبالاة، فيسبق إلى نفس من لا يحقق النظر أنه ظالم. وهذا مكان ينبغي التثبت فيه، ومغالبة ميل النفس جملة، ألا يميل المرء مع الصفة التي ذكرنا ولا عليها، ولكن يقصد الإنصاف بما يوجبه الحق على السواء»[١٥١].

من الواجب أن تستند الظنون على أمارت ودلائل تقطع بصحة الظن من ناحية، وتبقيه في إطار غايته المقصودة، وهو أن يكون عصمة للمرء من الاغترار والانخداع.

وقد حدد ابن حزم بعض الأمارات التي تشي بصحة الظن حين يسوء، قال: «أعدل الشهود على الكذاب لسانه، لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضًا»[١٥٢] ويدخل ذلك في إطار الفراسة، فقد يكون للعين دَلالتها على المستكنّ المخفي في الصدور، كما قال ابن المقفع: «حركات العيون تدل على ما في القلوب»[١٥٣] وقال ابن المعتز: «العيون طلائع القلوب»[١٥٤] وفي أمثال العرب: «العينُ تُرْجُمانُ القلب»[١٥٥].

---

[١٥١] الأخلاق والسير: ص٢٤١.

[١٥٢] الأخلاق والسير: ص٢٤١.

[١٥٣] التمثيل والمحاضرة: ص٤٢٧.

[١٥٤] التمثيل والمحاضرة: ص٤٢٧.

[١٥٥] المرجع السابق: ص٣٠٩.

www.mtenback.com

وقد تدل العين بذلك على ما يضمره الآخرون من كراهية، «إذ شاهد البغض اللحظُ»[١٥٦].

وإذا كان حال المتكلم والناظر يمكن أن يؤكد ما نظنه به من كذب فإن السلوك قد يقود إلى إساءة الظن بالإنسان، فمن ساءت تصرفاته ساءت ظنون الناس به، ومن أشد البلاء أن يزل الإنسان في تصرفات مشينة في الوقت الذي يجتهد غاية الاجتهاد في التنديد بها، ودعوة الناس إلى الانصراف عنها.

وحول أهمية تأمل سلوك الإنسان للحكم عليه يرسي ابن حزم «قاعدة» في التعامل مع الناس وتكوين الانطباعات عنهم إذ يقول: «أشد الناس استعظامًا للعيوب بلسانه هو أشدُّهم استسهالاً لها بفعله»[١٥٧].

ويقدم الشاعر ابن قيس الرُّقَيَّات مثالاً لمن يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، ويخادعهم بالكتاب ولا يتبع أمره ونهيه، غير متخذ من تقدم سنه رادعًا له، وهو ما يجعل الشاعر يحكم بخبث طبعه، وفساد مَعْدِنه، ويذكر لنا ما صدر عن هذا الطبع الخبيث والمعدن الفاسد من كذب وغيبة، يقول[١٥٨]:

خَادَعَ اللهَ حين حَلَّ بِهِ الشَّيْبُ ... فَأَضْحَى وَبَانَ مِنْهُ الشَّبَابُ

يَأْمُرُ النَّاسَ أَنْ يَبَرُّوا وَيَنْسَى ... وَعَلَيْهِ مِن كَبْرة جِلْبَابُ

أَيُّهَا المُسْتَحِلُّ لَحْمِي كُلُّهُ ... مِنْ وَرَائِي وَمِنْ وَرَاكَ الحِسَابُ

اسْتَفِيقَنْ! فَلَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمٌ ... لا تَنَامَنَّ أَيُّهَا المُغْتَابُ

تَخْتِلُ النَّاسَ بالكِتَابِ فَهَلاَّ ... حِين تَغْتَابُنِي نَهَاكَ الكِتَابُ؟!

---

[١٥٦] المرجع السابق: ص٣٠٩.

[١٥٧] الأخلاق والسير: ص٢٣٦.

[١٥٨] ابن قيس الرقيات: ص٢٤٨.

www.mtenback.com

عوامل الزلل في سوء الظن:

جرى الحديث عن وقاية النفس من أن تلحقها ظنون الناس السيئة، ولأن المرء ينبغي أن يحب للآخرين ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها فلا يجوز أن يتحرى الإنسان سلامة سمعته من الظنون والاتهام، ثم يطلق بعد ذلك لظنونه السيئة بالآخرين العنان.

إن الحديث عن وقاية النفس من الظن السيئ بالآخرين إنما يؤول إلى حديث عن العوامل المفضية إلى سوء الظن إذ إن تحديد هذه العوامل والكشف عن طبيعتها وأبعادها إنما يعد وسيلة يحذر بها الزلل في هذا المسلك المعيب، كما أن هذا الحديث يلقي الضوء على أثر توقي عوامل الظن السيئ على سلوكنا وتصرفاتنا.

ومن العوامل المؤدية إلى إساءة الظن بالآخرين ضعف الإيمان فقد ذهب بعض الحكماء إلى أن «ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد، ولا يزيد لطف الحقود إلا وحشة منه، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف وأمره في خطر وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله[١٥٩].

فالظن السيئ أمارة دالة على ما قد يعلق بالقلوب من سخيمة وكراهية وحقد وحسد، وهي آفات يستبعد وجودها مع التربية الصالحة التي تنهى عن الإساءة إلى الآخرين الذين ينبغي معاملتهم ومحبتهم وفقًا لحقوق الأخوة.

ومما يكون سببًا في إساءة الظن بالآخرين الاضطراب النفسي وفقد التوازن الطبيعي فثمة نفوس يسهل إثارة شكوكها فترتاب بكثير مما لا ريب فيه وتستوقفها الحوادث العادية التي لا طائل وراءها، ولا غاية مقصودة لأحد فيها. والشاعر العربي ينفي عن نفسه تلك الحال النفسية التي تؤذي صاحبها ومن حولها[١٦٠]:

---

[١٥٩] إحياء علوم الدين: ٢/١٧١.

[١٦٠] مجالس ثعلب: ٢/٣٤٥.

www.mtenback.com

وَمَا كُــلُّ كَلْــبٍ نَــابِحٍ يَسْــتَفِزُّنِي ولا كُلَّمَــا طَــنَّ الذُّبَــابُ أُراعُ!

ومن سمات النفس التي تبالغ في الظن السيئ العجز عن الحكم الصحيح على الأمور وتؤكد ظنونها تلك الطبيعة، وهو ما رصده الشاعر في حديثه عن قوم غرقوا في الجهالة، وأدى استحكام الجهل في نفوسهم إلى أنهم ظنوا أنهم أعلم الناس(١٦١):

جَهِلُوا وظَنُّــوا أَنَّ عِلْمًــا عِندَهُــمْ ولَرُبَّمَــا خَــدَع العُيُــونَ سَــرابُ

إن حكم هؤلاء الأشخاص على الظواهر المحيطة بهم في واقعهم المعيش يميزه الاضطراب والتخبط، فهم يظنون غير الصواب، كحال السائر في الصحراء يخدعه السراب فيحسبه ماء، وربما كانت تصرفات السفيه الجاهل مع الناس مبنيةً على ظن سيئ يضمره السفيه في نفسه ويكون التعامل الأمثل معه في هذه الحالة ما يطفئ نيران قلبه! وهو الإعراض عنه وتجاهل أخلاقه حتى لا يتمادى في ما هو فيه من سفاهة تعدي وتؤذي وتسبب الألم له ولمن يعامله يقول الشاعر في ذلك(١٦٢):

وفَضْــلُ الحِلْــمِ أَبْلَــغُ في سَــفيهٍ وأَحْــرَى أَنْ تَنَــالَ بِــهِ انتِقَامَــا

وظَنَّ بِــيَ السَّــفاهَ فلَــمْ يَجِدْنــي أُســافِهُهُ وقلــتُ لــه سَــلاما

وهاهو رجل يتعرض للهجاء والسباب، ويظن شاتموه أنه مبادلٌ لهم سبابًا بسباب وهجاء بهجاء، إلا أنه يخلف ظنهم، ويعرض عن هذا الطريق ابتداء وقاية لسمعته وترفعًا عن مجاراتهم(١٦٣):

أَظَنَّتْ سَفَاهاً مِــن سَــفَاهَةِ رَأْيِهَــا أَنَ اهجُوَ لما أَنْ هَجَتنِــي مُحَــارِبُ

(١٦١) زاد المسافر: ص٥٤.

(١٦٢) ديوان محمود بن حسن الوراق: ص١٤٩.

(١٦٣) مجالس ثعلب: ٢/٥١٥.

www.mtenback.com

فَــلا وأَبِيهــا إنَّــــني بِعَشِــــيرتِي　　　هنالِكَ عـــن ذاكَ المقــامِ لَرَاغِــبُ

وتتضح أبعاد هذا السلوك المعتدل في قول الشاعر(١٦٤):

إنّي لأُعْرِضُ عــن أَشْـيَاءَ أَسْـمُعَها　　　حَتّى يَظُــنّ أُنَــاسٌ أَنَّ بِــي حَمَقًــا

أخشَى مَقَــالَ سَــفِيهٍ لاحَيَــاءَ لَــهُ　　　وَأَنْ يَظُــنّ أُنــاسٌ أَنّــه صَدَقَــا!

فالشاعر يبلغه المكروه ويسمعه، ويُغمض عنه ويتجاهله، مما قد يدفع بعض الناس أن يظنوا به ظنًا قبيحًا، وهو أنه أحمق، لكنه يجد أن هذا الظن أهون من أن يظن الناس صحة مارمى به السفيه الشاعر من افتراءات.

فالظن صورة من نفس صاحبه، ومن أراد أن ينأى بنفسه عن الظــن السـيئ بالآخرين فعليه أن ينظر في أمر نفسه، ويأخذها بأسباب الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقد أشار ابن حزم إلى ارتباط ظن الإنسان بمعدن نفسه، فقال: «فترى الفــاضل يود لو كان الناس فضلاء، وترى الناقص يود لو كان الناس نقصاء»(١٦٥).

وهو ما يوازي ظنًّا يتمثل في «المبالغة في تقدير النفس»، إذ كلما نقص العقل توهم صاحبه أنه أوفر الناس عقلاً وأكمل تميزاً(١٦٦).

معنى هذا أن ثمة اتهامًا وظنًا بعقول الآخرين وحكمهم على الأمــور وهــذه الظنون والاتهامات ليست إلا صدى لهذا التمجيد الزائف للذات؟!

وقد يؤدي خبث النفس إلى ظنها السيئ بالآخرين، ويترتب على ذلك كله أن يحال بين هذه النفس وأسباب الخير والنجاة، وهو ما أشار إليه ابن حزم حــين قــال: «الحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع، بل يظنه خبيثًا مثله! وقد شاهدت أقوامًا

---

(١٦٤) لباب الآداب: ٣٥٧.

(١٦٥) الأخلاق والسير: ١٩٥.

(١٦٦) المرجع السابق: ٢٢٥.

www.mtenback.com

ذوي طبائع ردية، وقد تصور في أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم على مثل طبائعهم، لا يصدقون أصلاً أن أحدًا سالم من رذائلهم بوجه من الوجوه، وهذا أسوأ ما يكون من فساد الطبع، والبعد عن الفضل والخير»[١٦٧].

إنّ أثر استقرار مقومات الإيمان في القلوب في توجيه النفس إلى الظن الحميد - بما يجعل موقف النفس من الظن مؤشرًا على رسوخ أسس الدين وقيمه فيها - يجعلنا أن نؤكد أن ثمة ارتباطًا بين النهوض بفروض الدين من ناحية والزلل في الظن من ناحية أخرى، وبعبارة أخرى نلقي الضوء على العبادة وأثر التقصير فيها على التورط في الظن بعدِّ الطرفين مندرجين ضمن ظواهر السلوك.

ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[١٦٨] نجد أن الأمر باجتناب الظن قد جاء في سياق خطاب المؤمنين، وكأن ليس ثمة التقاء بين حيازة مقومات الإيمان من ناحية والزلل في سوء الظن من ناحية أخرى.

وفي الحديث: «حسن الظن من حسن العبادة»[١٦٩]، فيصبح حسن الظن أثرًا مترتبًا على حسن العبادة والاجتهاد فيها، وقد يفهم من الحديث أن حسن الظن من سبل التقرب إلى الله ونيل رضاه، فعلى هذا النحو يصبح حسن الظن مظهرًا من مظاهر التعبد الحسن لله رب العالمين.

ويقترن الظن السيئ بمظاهر التقصير في الطاعات، وفي ذلك يقول الشاعر[١٧٠]:

يُنْبِيكَ عَنْ ضَعْفِ الفَتَى تَرْكُ الصَّلاةِ أو الخَدِيْنُ

---

[١٦٧] المرجع السابق: ص٢٢٨-٢٢٩.

[١٦٨] سورة الحجرات: ١٢.

[١٦٩] سنن أبي داود: ٤/٣٠٠.

[١٧٠] الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ): الأغاني، أعد الفهارس عبد الستار أحمد فراج، بيروت، دار الثقافة، ط ٣، ١٩٦٢، ج١٣ ص ٣٤٣.

www.mtenback.com

فَــإذا تَهَــاون بـــالصَّلا ةِ فَمَـا لَـهُ فِـي النَّـاسِ دِيْـنُ
إنَّ العَفِيْــفَ إذا تَكَنَّفَـــهُ المُرِيْـبُ هــو الظَّنِيْـنُ

إن التقصير في الطاعة يكون مصحوبًا بسوء اختيار الصديق، وإن تهاون المرء في واجبات الدين، وملازمته صديق السوء سببان كافيان لأن تلحقه الظنون السيئة، حتى وإن كان ذا قدر من النبل والعفاف.

والكائن الإنساني بطبيعته منطو على نقائص وعيوب، وكلٌّ يدرك عيوبه ونقائصه على نحو من الأنحاء، وهو يحس بها إحساسًا غير مباشر دون الاعتراف صراحة بها، فيحاول أحدهم خداع نفسه والآخرين، بأن يثبت لنفسه أن الآخرين مثله لهم زلاتهم وعيوبهم، فيسوء ظنه بهم، ويتحرى عيوبهم.

وحول هذا السلوك يؤكد ابن حزم أن «نظر المرء في نفسه والاهتمام بإصلاحها أولى من تتبع عثرات الناس»[١٧١] فحرص الإنسان على الانشغال بأمر نفسه يسد الباب أمام تفكيره في الآخرين الذي قد يورطه في الظن السيئ بهم. والخلاصة: أن من عوامل إساءة الظن التغافل عن عيوب الذات والتهاون في إصلاحها وشغل النفس بأمور الآخرين وأحوالهم.

ويرتبط سوء الظن بالناس كذلك بعدم إخضاع خواطر النفس وهواجسها إلى التروي ورقابة العقل، فكم من ظنون جلبتها هواجس لو أعمل المرء فيها عقله لقضى عليها، قبل أن تستدرجه إلى ظنون يشقى بها ويشقي بها الآخرين. ويضرب ابن حزم أمثلة دالة على ذلك، وينصح قائلاً: «لا تفكر فيمن يؤذيك! فإن كنت مقبلاً فهو هالك، وسعدك يكفيك. وإن كنت مدبرًا فكل أحد يؤذيك!»[١٧٢] وعلى هذا النحو

[١٧١] الأخلاق والسير: ص١٣٨.

[١٧٢] المرجع السابق: ص١١٤.

www.mtenback.com

ينغلق الباب أمام الظنون مطلقًا، فلا يصح أن يبدد طاقته وأن يشغل نفسه بمن يؤذيه ويفكر به.

والظن بالآخرين خيرًا أو شرًا - وإن كان مطلوبًا لتجنب المخاطر والمهالك - يستدعي نفسية وذهنية خاصة، وعلينا أن نتأمل طبيعة تكويننا النفسي، فربما لا نتمكن من هذا الظن، وربما نشقى به إن كلفنا أنفسنا به ونحن غير قادرين عليه، «استعمل سوء الظن حين تقدر على توفِيَتِه حقَّه في التحفظ والتأهب، واستعملْ حسنَ الظن حيث لا طاقة بك على التحفظ، فتربح، راحة البال»[١٧٣].

والأمثلة على توقي الظن السيئ بالناس كثيرة، وفي مصادر تراثنا تسجيل لمواقف أمسك أصحابها عن إطلاق ظنونهم السيئة في الآخرين، دون أن يخضعوا هذه الظنون للتروي والتثبت وإعمال الفكر، فمن هذه المواقف ما قصه علينا أسامة بن منقذ قال: «كتب أحد الولاة لملكه خطابًا جاء فيه: إن جماعة قد فسدت نياتهم، وخبثت ضمائرهم، وقد هموا بما لم يفعلوا وهم غير مأمونين على المملكة، وهم: فلان وفلان وفلان: فإن رأى الملك أن يعاجلهم فعل، فأجابه الملك: إنما أملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضى، وأفحص عن الأعمال لا السرائر»[١٧٤].

فقد انبنى خطاب الوالي على سوء الظن والريبة ببعض الأشخاص، وموقف الملك رده على هذا الخطاب فيه ترو وإعمال للعقل السليم إزاء ظنّ الوالي وكف الظلم والأذى عمن لم يقترفوا جرمًا بعد كي يحاسبوا عليه.

وقد حدد الفاروق عمر رضي الله عنه معالم السلوك الواجب اتخاذه في هذا الصدد، فقال: من عرَّض نفسه للتهمة فلا يلومَنَّ من أساء به الظن، ومن كتم سره

---

[١٧٣] المرجع السابق: ص١٢٥

[١٧٤] لباب الآداب: ص٣٧-٣٨.

www.mtenback.com

كانت الخيرة بيده، وضَعْ أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ شرًا وأنت تجد لها من الخير مخرجًا»[١٧٥].

إن رأينا في أمر المحيطين بنا، وتقويمنا لتصرفاتهم ينبغي أن يكون حسنًا إلى أن يثبت خلاف ذلك. قال ابن منقذ: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه» وإن ترجحت كلمة مقولة بين ظن حسن وسيئ فالواجب حملها على الظن الحسن.

ومن الأمثلة التي يحتمل الأمر فيها وجهين، بحيث يمكن أن يكون عرضة للظن الحسن وللظن القبيح ما يوضحه قول الشاعر[١٧٦]:

رَامَ نفْعًا فضَرَّ من غيرِ قَصْدٍ ومِنَ البرِّ مَا يَكُونُ عُقُوقا!

إن المرء قد يصدر عنه فعل يجلب الضر للآخرين، فيسارعون إلى إساءة الظن به، مع أن الدافع الذي حمله على القيام بفعله كان نبيلاً، إذ تمثل في رغبته المخلصة في النفع والبر والإحسان. إن ظنوننا بالآخرين لا بد أن تكون على الوجه الذي نرضاه لأنفسنا، كما يقول الشاعر[١٧٧]:

لا تَرْضَ للإخوانِ غيرَ الذي تَرْضَى به إن ناب أمرٌ جليل

إن ثمة قاعدة تحكم تعاملنا مع الآخرين، وهي ألا نرضى لهم إلا ما نرضاه لأنفسنا خاصة في تلك المواقف الشديدة التي يمكن أن تدفع بالظنون والأوهام والهواجس إلى النفوس.

---

[١٧٥] المرجع السابق: ص١٢.

[١٧٦] ابن خلكان، أحمد بن محمد: وفيات الأعيان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، (١٩٤٧م)، ج٣، ص٣٠٨.

[١٧٧] ابن عبد القدوس، صالح: ديوان صالح بن عبد القدوس، تحقيق: عبد الخطيب، بغداد، دار منشورات البصري، (١٩٦٧م)، ص٣١.

www.mtenback.com

والظن السيئ بغير الحق ظلم وإيذاء على نحو ما يشير إليه قول الشاعر[١٧٨]:

أَلاَ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ فَلاَ تَكُنْ ظَنُونًا لِمَا فِيهِ عَلَيْكَ أَثَامُ

وإذا كان ذلك هو مسلكنا للوقاية من الظن السيئ بالآخرين فما يكون موقفنا نحن ممن يسيئون الظن بنا مخطئين متعجلين ؟ يقول ابن حزم: «النائل مني لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما، إما أن يكون كاذبًا، وإما أن يكون صادقًا. فإن كان كاذبًا فقد عجل الله لي الانتصار منه على لسان نفسه، بأن حُصِر في جملة أهل الكذب، وبأن نبه على فضلي، وبأن نسب إليَّ ما أنا منه بريء العرض، وما يعلم أكثر السامعين له كذبه، إما في وقته ذلك، وإما بعد بحثهم عما قال: وإن كان صادقًا، فإنه لا يخلو من أحد ثلاثة أوجه، إما أن أكون شاركته في أمرٍ استرحت إليه استراحة المرء إلى من يقدر فيه ثقة وأمانة، فهذا أسوأ الناس حالة، وكفى به سقوطًا وضعة، وإما أن يكون عابني بما يظن أنه عيب وليس عيبًا، فقد كفاني جهله شأنه، وهو المعيب لا من عاب، وإما أن يكون عابني بعيب هو في على الحقيقة، وعلم مني نقصًا أطلق به لسانه، فإن كان صادقًا فنفسي أحق بأن ألوم منه، وأنا حينئذ أجدر بالغضب على نفسي مني على من عابني بالحق»[١٧٩].

ثمة واجب أخلاقي يستوجب إخضاع ظنون الناس السيئة فينا إلى تفكير عقلي هادئ ومتزن، فلا ترد هذه الظنون ابتداء تحت وطأة الغضب، والرغبة التلقائية في الانتصار للذات، بل نحاسب أنفسنا ونفكر فيما ظن الناس فينا وبهذا التفكير العقلي نقوم الظنون لتحديد طبيعتها ودوافعها، فربما كانت هذه الظنون وسيلة نقف بها على عيوبنا.

---

[١٧٨] المرجع السابق: ص١٠.

[١٧٩] الأخلاق والسير: ص١٣٦، ١٣٧.

www.mtenback.com

وهذا التفكير العقلي الرشيد يمثل ضابطًا يقي الإنسان من الاغترار والانخداع بظن حسن يظنه الناس به، أو التأثر بظن سيئ يفقده الثقة بالنفس، يقول ابن حزم: «أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك، لأنه نَبَّه على نقصك، وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك، لأنه نبه على فضلك، ولقد انتصر لك من نفسه بذلك»[١٨٠].

ولا تأس إن ذممت بما ليس فيك، بل افرح به ! فإنه فضلك ينبه الناس عليه، ولكن افرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح سواء مدحت به أو لم تمدح، واحزن إذا كان فيك ما تستحق به الذم، وسواء ذممت به أو لم تذم »[١٨١].

ومن العوامل المؤدية إلى إساءة الظن مما قد يحدث في المواقف اليومية إجمال الكلام؛ ذلك أن الكلام إذا أجمل اندرج فيه تحسين القبيح وتقبيح الحسن[١٨٢]. فالعاقل من لم يجعل حديثه جالبًا لسوء الظن به. وعلى الناس كذلك ألا ينساقوا وراء ظنونهم السيئة في الكلام محاولين أن يجدوا له في الخير وجهًا. فعلى سبيل المثال قد يخبر إنسان بأن صحته ساءت بسبب الشراب، فيكون قوله داعيًا إلى إطلاق الظنون السيئة في عقله ودينه، إذ لم يفطن المتحدث إلى أن إجمال قوله على هذا النحو يجعله دالاً على الخمر، وهو قد أراد شرب المنبهات من شاي وقهوة مثلاً. وقد أخطأ لأنه جعل كلامه عرضة للظن السيئ، والسامعون إن تسرب إلى نفوسهم هذا الظن وجب عليهم ألا يبادروا إلا الأخذ بالدلالة المعتادة المألوفة لهذا الكلام[١٨٣].

والصلة بين سوء الظن والنميمة وثيقة، ولعلنا لا نبالغ إن أكدنا أن الظنون السيئة لا يحركها شيء كما تحركها النميمة، ذلك أن الأثر المترتب على النميمة إفساد

---

[١٨٠] المرجع السابق: ص١٤١.

[١٨١] المرجع السابق: ص١٥٨.

[١٨٢] المرجع السابق: ص١٣٥.

[١٨٣] الأخلاق والسير: ص١٣٥.

www.mtenback.com

الضمائر، وفساد ذات البين، وهو ما يمثل مناخًا ملائمًا لظهور الظنون وتناميها في نفس الإنسان.

وربما كان إطلاق الظنون هدفًا لدى الواشي الساعي بالنميمة، قد يزيد في الأخبار من عنده، فيكذب ويدعي أقوالاً وأفعالاً لم تحدث، ويخبر بها الآخرين ليظنوا أن المحيطين بهم يكرهونهم ويمكرون بهم.

ويجد النمام الواشي غايته في مواقف الخصام والكدر التي تشحن بها الأجواء ولذا فخير ما يعمله عاقل أن يسد المجال أمام النمامين الوشاة ويغلق الباب دون تسرب سوء الظن إلى نفسه أو نفوس الآخرين. يقول الشاعر[١٨٤]:

خَلِيْلٌ لِي سَأَهْجُرُهُ لِذَنْبٍ لَسْتُ أَذْكُرُهُ
وَلَكِنِّي سَأَرْعَاهُ وَأَكْتُمُهُ وَأَسْتُرُهُ
وَأُظْهِرُ أَنَّنِي رَاضٍ وَأَسْكُتُ لا أُخَبِّرُهُ
لِكَيْ لا يَعْلَمَ الوَاشِي بِمَا عِنْدِي فَأَكْسِرُهُ!

إن الشاعر رغم هجره صديقه حريص على ألا يهيئ الظروف المواتية لتفشي النميمة، فيحرص على كتمان عيوب صديقه، ويحفظ أسراره، بل إنه ليتظاهر برضاه عنه، وعدم غضبه منه ليقطع بذلك أمام الحريصين على السعي بين الناس بالوشاية والنميمة.

و إذا تبادر لأسماعنا كلام شُم منه رائحة الإساءة والغمز واللمز فعلينا ألا نتجاوب مع قائله، وأن نحرص على التثبت من صحة ما يدعيه، قال ابن حزم: «لا

---

[١٨٤] الموصلي، إسحاق: ديوان إسحاق الموصلي، تحقيق: ماجد أحمد العزى، بغداد، مطبعة الإيمان، (١٩٧٠م) ص١٣٠.

www.mtenback.com

تجب على كلام نقل إليك عن قائل حتى توقن أنه قاله، فإن من نقل إليك كذبًا رجع من عندك بحق!»[١٨٥].

وناقل الظن السيئ راغب في إثارة المشاعر وتأجيجها، فوجب أن يحال دون تحقيق رغبته وغايته،و «أكثر الناس محبون لإسماع المكروه من يسمعونه إياه على ألسنة غيرهم، فلا شيء أقذع من هذا الوجه فإنهم يكفون عن نقلهم المكاره على ألسنة الناس إلى الناس، وهذا شيء لا يفيد إلا إفساد الضمائر وإدخال النمائم فقط»[١٨٦].

فالعاقل من فطن إلى الدوافع التي تجعل النمام ينقل ظنون الناس السيئة فمن يحرص على إبلاغ الناس هذا الظن الخبيث إنما يتحرى إيقاع الضرر والشرور بهم:

مَنْ جَعَلَ النَّمَّامَ عَيْنًا هَلَكَا ... مُبْلِغُكَ الشَّرَّ كَبَاغِيهِ لَكَا

الآثار المترتبة على سوء الظن :

لا ريب أن النهي عن الظن السيئ بالآخرين والحذر من أن تلحقنا ظنونهم السيئة بسبب الآثار الوبيلة التي تترتب على هذه الآفة الأخلاقية المرذولة. وأول الآثار المترتبة على سوء الظن وقوع الإنسان في إثم كبير، فظنه السيئ بالآخرين وليد ارتيابه بهم، واحتقاره لهم، وكفى بالمرء إثمًا أن يحقر أخاه الإنسان. ويضاف إلى ذلك أن الظنون الباطلة تجلب الشرور والأذى بمن يساء بهم الظن، فمن أساء الظن بأحد فقد وضعه موضع الاتهام والارتياب، وأفسد سمعته لدى الناس، وربما دفعهم ذلك إلى تحاشي التعامل معه.

وقد يكون هذا الشخص الذي يساء به الظن تاجرًا، وتتعرض تجارته للكساد بسبب ظنون باطلة أطلقها بعضهم دون التثبت منها. وعلى هذا النحو تكون الظنون

---

[١٨٥] الأخلاق والسير: ص١٢٠.

[١٨٦] المرجع السابق: ص١٣٦

www.mtenback.com

السيئة سببًا في محاربة الناس في أرزاقهم، وتهديدًا لاستقرار أسرهم. وإن فشا هذا الأثر في مجتمع من المجتمعات اضطربت نشاطاته المختلفة وتأثر اقتصاده. فما زلنا نسمع بين الحين عن مصانع توقفت، ومتاجر أغلقت، بسبب شائعات مغرضة لم تستند إلى أساس سليم.

ومن الأذى أن يساء الظن بالمخلصين من أهل الكفاءات من المعلمين والأطباء والمهندسين والصناع المهرة... وغيرهم، فيفقد المجتمع ثمار عملهم، وإخلاصهم في أداء واجباتهم وتفوقهم في اختصاصاتهم.

لقد توعد الله باللعنة والعذاب الأليم كل من يظن ظن السوء ويفتري على الناس غير الحق، خاصة حين يرتبط الأمر بسمعة العفيفات اللائي يناهن أذى الظنون الباطلة، والشائعات المغرضة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[187].

ولعلنا بذلك نقف على علة النهي عن الظن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[188]، فهو لتحذير الناس من إيقاع الضرر.

وإساءة الظن صفة أخلاقية ذميمة، ومن آثارها أنها تورط صاحبها في رذائل وآفات سلوكية منها الكذب المحرم في القوانين والشرائع والأديان. وإن الارتياب في الناس وإدامة الظن السيئ بهم يؤديان إلى تصور الإنسان أوهامًا غير حقيقية، فإذا ما واجهه الناس بالحق الذي يبدد الظنون، واستبان له خطؤه في حق الآخرين، اضطر إلى الاعتذار، واختلاق الحجج المسوغة لإقدامه على الظن السيئ. ومثل ذلك يخلق مناخًا

---

[187] سورة النور: ٢٣.

[188] سورة الحجرات: ١٢.

www.mtenback.com

صالحًا للكذب، فاعتياد الإنسان على الارتياب بالآخرين يدفعه إلى اعتياد الكذب عليهم، يقول ابن حزم: «كثرة الريب تعلم صاحبها الكذب، لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بالكذب، فيجترئ عليه ويستسهله»[189].

وكما يرتبط الظن السيئ بالكذب فإنه يرتبط كذلك بالغيبة، فمن زل في ظن سيئ بأخيه أطلق فيه لسانه، وظن نفسه خيرًا من المحيطين به. فاحتقرهم، حتى يبدو الأمر سلسلة من الرذائل يؤدي بعضها إلى بعض، مصدرها سوء الظن الذي يعد مدخلاً من مداخل الشيطان إلى القلب على نحو ما يذكر أبو حامد الغزالي إذ يقول: «ومن أبوابه سوء الظن بالمسلمين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[190] فمن يحكم بشرٍّ على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك، أو يقصر في القيام بحقوقه، أو يتوانى في إكرامه، وينظر إليه بعين الاحتقار، ويرى نفسه خيرًا منه وكل ذلك من المهلكات. ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم.. إن نظرة الناس تختلف باختلاف صلتهم بالمرء وعلاقتهم به والظروف التي تربطه بهم وعلى أسس هذه العلاقات تكون آراؤهم فيه وقد صدق الشاعر حين قال:

وَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبدي الْمَسَاوِيَا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا شرًّا، فمهما رأيت إنسانًا سيئ الظن بالناس طالبًا للعيوب فاعلم أنه خبيث في الباطن وأن خبثه يترشح منه! وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق»[191].

---

[189] الأخلاق والسير: ص٢٣٦.

[190] سورة الحجرات: ١٢.

[191] إحياء علوم الدين: ص٣٦١٣.

www.mtenback.com

ومن ساء ظنه في الناس قر في قلبه الخوف المستديم منهم، وهو ما يفقد الظـــان إحساسه بالأمان، وربما دفعه ذلك إلى غل حياته بقيود يلتمس بها استعادة شيء مـــن هذا الأمان المفقود. وقد يكون الظن السيئ بالناس وليد الإساءة إليهم، فمن ظلم الناس واعتدى على حقوقهم، ساء ظنه فيهم، وأمضى نهاره وليله وهو يترقب مكرهم بـــه، وعدوانهم عليه.

وأجدر الناس بالابتعاد عن سوء الظن من يتولى من أمر الناس شيئًا إذ يجب عليه حسن الظن وحمل الناس على الصلاح، لأن إساءة الحكام والقادة ظنهم فيمن حولهـــم يؤثر في كفاءة إدارتهم للأمور، وتحقيق المهام المنوطة بهم، إذ سيتحول جزء كبير مـــن جهدهم وطاقتهم إلى وقاية أنفسهم من ظنونهم السيئة بالمحيطين بهم، وربما تبدل حالهم من خدمة الناس والقيام على مصالحهم إلى الكيد بهم والدس لهم!

وتؤدي الظنون السيئة إلى الانعزال والتقوقع والانكفاء على الذات، فمن ساءت ظنونه بالناس احتجب عنهم، وأمسك عن التعامل معهم خشـــية أن يدركـــه منهـــم مكروه، أو يلحقه أذى. وإذا استطاع أن يتجاوز عزلته تحت وطأة احتياجه إلى التعامل مع الناس لتلبية متطلباته الأساسية فإن ظنونه وهواجسه سرعان ما تدفعه إلى الصـــدام بهم، والتشاجر معهم. وتحول هذه الظنون والهواجس دون عفوه عنهم، لتقيه من فساد طويتهم، وخبث نواياهم، فيضطر إلى العزلة من جديد.

والمجتمع نفسه يلفظ هذا الذي يسترب بالناس جميعًا ولا يهبه ثقتـــه، ويتخـــذ الناس من صاحب الظن السيئ موقفًا ســـلبيًا لاعتداءاتـــه المتكـــررة علـــى سمعتهـــم وأعراضهم، ولصداماته القديمة وخصوماته الحادة.

هذا عن طبيعة العلاقة المتبادلة بين صاحب الظن السيئ والمجتمع، فهو يسترب من المجتمع ويعادي أفراده فينعزل عنهم، والمجتمع يلفظه ولا يرضى به عضواً إيجابيًّا بين أعضائه.

www.mtenback.com

ويعرّض أصحاب الظن السيئ غيرهم للمصير نفسه، حين تسوء ظنونهم بشخص بريء فيحيطونه بشكوك كثيفة تحول بينه وبين التواصل المبتغى مع أفراد المجتمع الذين يهجرونه وقد صدقوا ما أثير حوله من ظنون. يقول الشاعر[١٩٢]:

فلا – وَيَمِينُ اللهِ – مَا عَنْ جِنَايَةٍ ... هُجِرتُ ولكِنَّ الظَّنِينَ ظَنِينُ

لقد تعرض الشاعر للنبذ واللفظ والهجر دون ذنب اقترفه، أو جناية ارتكبها ومع هذا فقد لقي عقابًا قاسيًا لأنه تعرض للأذى والاتهام، والظن والارتياب.

إن وَحْدَة المجتمعات تتعرض لمحنة شديدة إن فشا الظن السيئ بين أفرادها، وقوة أي مجتمع تنبع من قوة أفراده، وتلاقي جهودهم حول غايات المجتمع الكبرى، وأهدافه الأساسية. وفشو الظن السيئ يهدد هذا التلاقي، إذ يستحيل هؤلاء الأفراد إلى جزر منعزلة، ويفقد المجتمع مزية ما يقوم بينهم من تعاون إيجابي خلاق، وبدلاً من أن يجني المجتمع ثمرة قوى أفراده حين تتلاقى، يبدأ المجتمع في الانتكاس والارتداد إلى الوراء وقد أخذت هذه القوى تتبدد في الكيد والخصومة تارة والنبذ والعزلة تارة أخرى.

وإذا كان للظن السيئ أثره السلبي المدمر على وحدة المجتمع وتماسك أفراده على النحو الذي أوضحناه فإن له أثرًا لا يستهان به على مستوى أشمل وأخطر حين يؤدي إلى هزيمة الدولة في مجموعها، فقد تفقد الدولة النصر في حرب من الحروب بسبب ظنون باطلة تسربت إلى نفوس مقاتليها. ونستطيع أن نضع مظاهر الحرب النفسية في هذا الإطار إذ تقوم هذه الحرب على بث الظنون غير الصحيحة في نفوس الأعداء.

فمن مكايد الحرب بث الظنون السيئة في نفوس الأعداء عندما يلقى على ألسنة كبراء العدو أنهم يكاتبون بالخدمة، ووعد الوفاء بإظهارهم، ويشاع ما يؤكد ذلك لتقوى به القلوب، ويتحدث الناس بمضمونه، وإذا بلغ العدو ذلك لابد أنه يتأثر به[١٩٣].

---

(١٩٢) ظاءات القرآن: ٣٧.

(١٩٣) بدائع السلك: ١/١٦١.

www.mtenback.com

إن حمل الأعداء على أن يسيء بعضهم الظن ببعض وسيلة فعالة للقضاء على روحهم المعنوية، ولتبديد وحدتهم، إذ يتهم بعضهم بعضًا بالخيانة بلا قرينة ولا دليل، وهو ما يعد وسيلة فعالة لتحقيق النصر عليهم.

وقديمًا كانت الجيوش تفتح المدن والحصون بأمثال هذه الحرب النفسية المؤسسة على بذر الظن السيئ في النفوس، إذ إن من مكائد حصار المدن والحصون معرفة أسرار أهلها وتمكين إخافتهم، وينبغي أن يدس فيهم من يصغر شأنهم، ويؤيّسهم من المَدَد ويعلمهم أن أسرارهم مكشوفة في مكيدتهم، وأن يدار حول الحصن ويشار إليه بالأيدى وكأن منها مواضع حصينة وأخرى ذليلة، ليملأهم بذلك رعبًا وخوفًا.

وإذا كان هذا هو التأثير المدمر للظن في أمة بأسرها تحارب، فما بالنا بتأثيره في الأفراد القلائل. إن خير وسيلة للوقاية من شرور الظن ومواجهة آثاره تنبع من وقاية الذات منه، ثم الانتقال إلى دائرة أوسع وصولاً إلى الأمة بأسرها، ليتحقق بذلك وقايتها من الظن وآثاره وأسبابه التي تجعل سوء الظن مبررًا لبعض الإخفاق أو الحرمان.

اجتناب التجسس:

التجسس كلمة مأخوذة من الجَسّ، وجَسَّ الشيءَ: مسه بيده ليتعرفه. ومن معاني الجس: جس الخبر، ومنه التجسس. وجس الشخص بعينه: أحَدَّ النظر إليه ليستبينه ويستثبته.

والتجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر. والجاسوس صاحب سر الشر الذي يتجسس الأخبار ثم يأتي بها.

وتفرق المعاجم بين التجسس والتحسس، فمن المعاجم ما يذهب إلى أن التجسس أن يطلب الإنسان الطلب لغيره، والتحسس أن يطلبه لنفسه، وقيل:

www.mtenback.com

التجسس: البحث عن عورات الناس، والتحسس الاستماع إلى حديث الناس، وقيل: إن معناهما واحد في تطلب معرفة الأخبار[١٩٤].

وقد وردت مادة جس في القرآن الكريم مرة واحدة فقط، في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[١٩٥].

أي لا تتبعوا ما خفي من شؤون الناس الخاصة[١٩٦] قال المفسرون: التجسس البحث عن عيوب الناس وعوراتهم[١٩٧].

من ساء الظن بالناس تجسس عليهم:

والعلاقة بين سوء الظن والتجسس وثيقة، فقد علمنا أن الظن السيئ يكون من نفس مريضة لا ترى إلا العيوب والنقائص، وهي نفس تغفل عن عيوبها لتتحرى عيوب الآخرين، وتجدُّ في التفتيش عنها، وذلك بالتجسس على الآخرين للوقوف على نقائصهم، لتكون هذه العيوب والنقائص أمارات وأدلة تبرهن على الظن السيئ بالناس وعلى التقدير الزائف للذات.

قال الغزالي: «وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس»، وقد قال ﷺ: «لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا». والتجسس في

---

[١٩٤] انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني، ص١٣١، لسان العرب، لابن منظور مادة (جس)، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج١، ص٢٠٤.

[١٩٥] سورة الحجرات: ١٢.

[١٩٦] معجم ألفاظ القرآن الكريم: ١ /٢٠٤.

[١٩٧] الذهبي، الإمام الحافظ شمس الدين: إتحاف الأكابر بتهذيب كتاب الكبائر، تحقيق: د. أسامة محمد عبد العظيم حمزة، القاهرة، دار الفتح، ط١، (١٩٩٠م)، ص٢٤٦.

www.mtenback.com

تطلع الأخبار، والتحسس في المراقبة بالعين، فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين، ويكفيك تنبيهًا على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجميل أن الله تعالى وُصِف به في الدعاء فقيل: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح». والمرضيُّ عند الله من تخلَّق بأخلاقه، فإنه ستَّار العيوب، وغَفَّار الذنوب، ومتجاوز عن العبيد. فكيف لا تتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك؟ وما هو بكل حالٍ عبدَك ولا مخلوقَك!»[198].

فكأن تحري عيوب الآخرين والبحث عنها قد انبنى على ظن زائف بأن للذات منزلة تفوق الآخرين بما قد يسوغ لها الظن فيهم، والحكم عليهم، وفضح عيوبهم وما درت هذه الذات أنهم مثلها وربما كانوا فوقها مكانة ومنزلة.

وقد يكون إظهار العيوب وفضحها صدى لطبيعة التكوين النفسي للفرد الذي يتصل اتصالاً وثيقًا بالنزوع إلى الظن والارتياب، والحرص على التجسس وفضح العورات، ومعدن النفس هو الذي يحدد موقفها من هذا الجانب. يقول الشاعر[199]:

وتَرَى الكَرِيْمَ إِذَا تَصَرَّمَ وصْلُهُ يُخْفِي الْقَبِيحَ ويُظْهِرُ الإِحْسَانَا

وتَرَى اللَّئِيمَ إِذَا تَقَضَّى وصْلُهُ يُخْفِي الجَمِيلَ ويَظْهِرُ البُهْتَانَا

فالحال رهنٌ بتسامي النفس أو دناءتها، والكريم - مع زوال أسباب المودة والمحبة - يستر العيوب ويظهر المحاسن التي يحرص اللئيم أن يخفيها، ويظهر بدلاً منها ما يختلقه من بهتان وأكاذيب.

وما دام للنفس هذا التأثير البين في استدراج صاحبها من الظن إلى التجسس فلا بد من إخضاعها لرقابة العقل، والتحكم في نزوعها إلى الارتياب في الآخرين وتتبع أحوالهم. يقول الزمخشري: «لا توصل إلى سمعك إلا همسك ومناجاتك، وإلا جؤرك

---

[198] إحياء علوم الدين: ٢/ ١٧٧، ١٧٨.

[199] المرجع السابق: ٢/ ١٧٩.

www.mtenback.com

ومناداتك، ولا تفطن لعيب أحد سوى عيبك، ولا يهمك إلا دنس ردنيك وجيبك»[٢٠٠].

ويكشف الغزالي عن طبيعة الاستدراج نحو الأذى وسوء الظن، ومن ثم التجسس، فيقول: «إن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشغل بالتجسس»[٢٠١].

وثمة وجه آخر تتجلى فيه الصلة بين الظن والتجسس، إذ يشتركان في كونهما مظهرين يدلان على العجز عن التواصل الإيجابي الرشيد مع المجتمع، فالواحد منا قد يلمس فضولاً في نفسه لمعرفة أحوال الآخرين الذين يلتقي بهم في نطاق معاملاته اليومية، كزملاء العمل والجيران في الحي،وقد ينبع التجسس على هؤلاء من رغبة مخلصة في التواصل معهم، وحرص صادق على مشاركتهم أحوالهم.

وغني عن البيان أنّ هذا مظهرٌ سلبيٌّ للحياة الاجتماعية لا يليق بالعقلاء الذين يلجمون أنفسهم عن فضول الرغبة في معرفة أحوال الآخرين، ويتحلون بسلوك إيجابي، وهو التعامل مع الآخرين تعاملاً بهدف تحقيق معاني الأخوة الصادقة، التي تجعل المرء في اطلاع على أحوال إخوانه بشكلٍ عفوي تلقائي بعيد عن التجسس والفضول فيطمئن على سلامتهم وحسن تدبيرهم وتصريف معاشهم دون أن يفعل ما يشين نفسه أو يسوؤها.

والظن السيئ علامة على عجز الإنسان عن التواصل الاجتماعي السويّ مع مجتمعه، فصاحب الظن السيئ دائم الصدام مع الآخرين، مسترِيب بكل ما يحيط به من أشخاص وأحداث. وبدلاً من معاملته لإخوانه بمعاني الأخوة والمودة تستبد به الخصومة

---

[٢٠٠] أريد بدنس الثوب تلطخ النفس بالعيب، وخص الجيب والردن لأنهما أول ما يتدنس، وإنما كنّى دنس بدنس الثوب لاشتماله عليها، والتباسه بها، كما يقول: الكرم في برده، والجود تحت جلده، مقامات الزمخشري: ص٨٩-٩٠.

[٢٠١] إحياء علوم الدين: ٣/١٥٢.

www.mtenback.com

والعداوة، وهو ما يجعله في النهاية شخصًا منطويًا على نفسه، متقوقعًا على ذاته، وقد امتلأت نفسه، دون مبرر، بالمرارة من مجتمعه.

ومن حسن ظنه بالناس أعف نفسه عن تتبع أحوالهم الخاصة بهم، التي لا يرضون إطلاع الآخرين عليها، فتبقى نفسه لذلك صافية، لا يعكرها كدر الخصومة، ولا تشوبها مرارة العداوة.

ويدل التأمل في الكتاب والسنة على النهي الحاسم عن رذيلة التجسس، وهو ما يعد مؤشرًا دالاً على خطورة آثاره على الفرد والمجتمع والأمة، وما يؤكد ذلك تعارضه مع قيم الدين وتعاليمه وآدابه. وقد ورد النهي عن التجسس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾[٢٠٢]. ونلحظ في الآية الكريمة أن الأمر باجتناب الظن اقترن بالنهي عن التجسس، ولعل ذلك مما يشير إلى الصلة الجامعة بين هذين المسلكين.

وفي هدي الرسول ﷺ ما يشدّد النهي عن هذه الرذيلة، في قوله: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا»[٢٠٣]. وفي الحديث: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبّ في أذنيه الآنك يوم القيامة»[٢٠٤].

وإذا كان هذا هو حال الأذن المتجسسة، فإن ثمة تخويفًا مماثلاً من مغبة التجسس بالعين، فكلتاهما من أدوات التجسس تتفقان في الغاية وتختلفان في الوسيلة، فالأذن تستمع إلى الأحاديث الخاصة لتجتذب الأخبار، والعين تتطلع إلى الناس في أحوالهم الخاصة لتتبع العورات.

---

[٢٠٢] سورة الحجرات: ١٢.

[٢٠٣] سنن أبي داود: ٤/٣٠٠.

[٢٠٤] أخرجه البخاري. والآنك الرصاص المذاب.

www.mtenback.com

كما جاء النهي عن تتبع عورات الناس: «يا معشر من آمن بلسانه و لم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيّروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه، ولو في جوف بيته»[٢٠٥]. فقد شدّد الشارع النهي عن إيذاء الناس بمظاهر الإيذاء المذكورة، وبيّن الارتباط بين هذه الأفعال وما ينتظر الذين يقترفونها من جزاء في الدنيا فيذوقون المصير نفسه وذلك بأن يتعرضوا للفضيحة حتى مع حرصهم وعدم توافر الأسباب المؤدية إلى إظهار سراءهم «ولو في جوف بيته». ويضرب مثلاً آخر محسوساً للإيذاء: «لو أن رجلاً اطّلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك جُنَاح»[٢٠٦].

ذهاب البصر خير من كثير من النظر!

مما يسهل للإنسان أحيانًا الانزلاق في جريمة التجسس إرسال النظر، إذ يجد المرء نفسه مدفوعًا إلى تصويب نظره فيما لا يعنيه بدافع الفضول والرغبة في معرفة الأخبار، ولذا فإن أول ما ينبغي الحديث عنه من عوامل مزالق التجسس النظر.

إن المفلحين هم الذين يراقبون أبصارهم ويدركون أن غضها من أوجب الواجبات، على نحو ما يقول الزمخشري: «قد علمت أنك مأمور بالغض من البصر، وحذف فضول النظر»[٢٠٧].

فترك فضول النظر يقطع الطريق على التجسس، فالبصر «صاحب خبر القلب ينقل إليه أخبار المبصرات، وينقش فيه صورها، فيجول فيها الفكر، فيشغله ذلك عن الفكر فيما ينفعه من أمر الآخرة»[٢٠٨].

---

[٢٠٥] الشربجي علي: الزواجر في التحذير من الكبائر، دمشق، دار القلم، ط١، (١٩٩٨م) ص٤٣٦. رواه الترمذي في كتاب البر.

[٢٠٦] المرجع السابق: ص١٧٦. رواه البخاري في كتاب الديات ومسلم في كتاب الآداب.

[٢٠٧] مقامات الزمخشري: ص٨٠.

[٢٠٨] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: ذم الهوى، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، ط١، (١٩٦٢م)، ص٨٢.

www.mtenback.com

والانشغال بصور المبصرات وأخبارها يسبِّب انشغال الفكر بها، وثمة عاقبة وخيمة تترتب على ذلك، وهي الاهتمام بهذه المرئيات على حساب الاهتمام الضروري الواجب، ويعني أن التجسس شاغل خبيث لا يعود على صاحبه بنفعٍ بل بندامة وتعاسة وبعد عن الطريق المستقيم. وقد أدرك العرب العلاقة بين فضول النظر وفضول العمل الذي لا يفيد وقالوا في ذلك: «ذهاب البصر خير من كثير من النظر»[٢٠٩].

فعلى الإنسان إخضاع بصره لرقابة مستديمة تصونه من الوقوع في المحرمات ومن بينها التجسس. قال الزمخشري: «راقب الله عند فتح جفنك وإطباقه، وإمساك نظرك وإطلاقه»[٢١٠].

وعن الصلة الوثيقة بين النظر والتجسس قال الشاعر[٢١١]:

وَمَنْ يَتَّبِعْ عَيْنَيهِ فِي النَّاسِ لاَ يَزَلْ ... يَرَى حَاجَةً مَمْنُوعَةً لا يَنَالُهَا

والذي يورط في ذلك هو انشغال القلب بوساوس وهواجس تدفع العين إلى هذا المسلك المعيب، ثم لا يلبث الإنسان أن يقع تحت وطأة حلقة مفرغة، فالعين تتجسس على الناس والنفس تزين لها فعلها وأمرها به. وما يرد على النفس من أخبار وصور يكون سبباً في انشغالها بمزيد من الهواجس والوساوس. والنفوس التي تستسيغ ذلك نفوس غبية كما يقول الشاعر[٢١٢]:

لَواحِظُنَا تَجْنِي ولا عِلْمَ عِنْدَهَا ... وأَنفُسُنَا مَأْخُوذَةٌ بِالجَرَائِرِ

---

[٢٠٩] صفوت، أحمد زكي: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، القاهرة شركة مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١، ج١ ص٤٥.

[٢١٠] مقامات الزمخشري: ص٨١.

[٢١١] ذم الهوى: ص٨٩.

[٢١٢] المرجع السابق: ص٩٩.

www.mtenback.com

وَلَمْ أَرَ أَغْبَى مِنْ نُفُوسٍ حَرَائِرٍ ... تُصَدِّقُ أَخْبَارَ العُيُونِ الفَواجِرِ!!

إن العيون التي تسترق النظر إلى أحوال الناس الخاصة تجني على أصحابها، والأغبياء هم الذين ينساقون وراء أخبار العيون على رغم ما يتحلون به من عفة، والعفة لم تصنهم من الزلل في هذا السلوك المريض. وهذا الشاعر يجعل جناية العين على القلب أعظم مصائب الزمان جميعها فيقول(٢١٣):

لَوْ مُيِّزَتْ نُوَبُ الزَّمَا ... نِ مِنَ البَعِيدِ إلى القَرِيبِ

مَا كُنَّ إلا دُونَ مَا ... جَنَتِ العُيُونُ عَلَى القُلُوبِ

والعاقل من لم يغتر بسرور اللحظة الراهنة التي يقلب فيها بصره فيما لا شأن له به، وهو الذي يتدبر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلاً»(٢١٤).

إن إرضاء الفضول بالتطلع إلى أحوال الناس، وما قد يجره ذلك من تحريك للشهوات إنما يعد مكسبًا ضئيلاً محدودًا لا يتجاوز حدود لحظته الراهنة، ويورث للإنسان بعد ذلك طويل المعاناة والألم من مغبة هذه الشهوة. وهنا يكون سرور العين والمقلة سببًا في شقاء الروح والمهجة، كما يقول الشاعر(٢١٥):

والْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِي أعيُنِ النَّاسِ مَوْقُوفٌ عَلَى خَطَرِ

يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

ويصور شاعر في صورة طريفة حديث النفس وأعضائها في اتهامات متبادلة لما كان سببًا فيما آل إليه حال الشاعر من المحن(٢١٦):

---

(٢١٣) ذم الهوى: ص١٠٣.

(٢١٤) جمهرة خطب العرب: ١/٨٧.

(٢١٥) ذم الهوى: ص١٠٠.

(٢١٦) المرجع السابق: ص٩٦.

www.mtenback.com

قَلبي يَقُولُ لِطَرْفِي هِجْتَ لِي سَقَمًا | والعَينُ تَزعُمُ أنَّ القَلْبَ أبْكَاهَا
واَلجسْمُ يَشْهدُ أنَّ العَيْنَ كَاذِبَةٌ | هِيَ الَّتِي هَيَّجَتْ للقَلْبِ بَلْوَاهَا
لولا العُيُونُ ومَا يَجْنِينَ مِنْ سَقَمٍ | ما كُنْتُ مُطَّرَحًا في سُرَّ مَنْ رَاهَا

ويصور شاعر آخر ذلك الحوار بعد أن تصدعت أركان النفس وتزعزعت جنباتها. قال[٢١٧]:

يَقُولُ قَلْبِي لِطَرْفِي إذ بَكَى جَزَعًا | تَبكِي وَأَنْتَ الذي حَمَّلتَنِي الوجَعَا ؟!
فقالَ طَرْفِي لَه فيما يعاتبُهُ | بَلْ أَنْتَ حَمَّلتَني الآمَالَ والطَّمَعَا
حتَّى إذا مَا خَلا كُلٌّ بصَاحِبِهِ | كِلاَهُمَا بِطَوِيلِ السُّقْمِ قد قَنِعَا
نَادَاهُمَا كَبِدِي لا تَتْلَفَا فَلَقَد | قَطَّعْتُمَانِي بِمَا لاقَيتُما قِطَعَا

فالوسيلة التي يتحقق بها ابتعاد العين عن التجسس هي في غض البصر وصرفه عن حرمات الناس، وعن شوونهم الخاصة، والفطنة إلى أثره في زرع الشهوات في القلوب. وقد نسب إلى عيسى بن مريم عليه السلام في ذلك قوله: «النظر يزرع في القلب الشهوة، وكفى بها خطيئة»[٢١٨].

وورد نهي الرسول عن اتباع النظرة النظرة، فقال: «لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»[٢١٩]. ومعني ذلك أن الحرج والإثم مرفوعان فيما تبادرت إليه عينه بالنظر عفواً دون تعمد، لكنه يشرع في الدخول إلى حيز الإثم والذنب حين يصوب نظره ويتأمل فيما يرى تأملاً كاشفًا عن أبعاد هذا المرئي.

---

(٢١٧) المرجع السابق: ص٩٦.

(٢١٨) المرجع السابق: ص٩١.

(٢١٩) المرجع السابق: ص٨٦.

www.mtenback.com

والعاقل من أدرك مغبة هذه النظرات التي يؤدي بعضها إلى بعض، قال ذو النون: «اللحظات تورث الحسرات، أولها أسف، وآخرها تلف، فمن تابع طرفه تابع حتفه»[٢٢٠].

إن هذه النظرات تؤدي بصاحبها من حال سيئ إلى حال أسوأ حتى يقضى أمره ويموت قلبه! وفي هذا المعنى يذكر الشاعر أن عينه قد اجتلبت له المنية[٢٢١]:

وَأَنَا الذي اجتَلَبَ المنيةَ طَرْفُهُ فمَنِ المطَالَبُ والقتيلُ القاتِلُ

ومن هنا ندرك حكمة الشرع في الأمر بغض البصر،إذ «لما كان إطلاق البصر سببًا لوقوع الهوى في القلب أمرك الشرع بغض البصر عما يخاف عواقبه، فإذا تعرضت بالتخليط، وقد أمرت بالحمية، وقعت إذًا في أذى، وأخذت تضج من أليم الألم»[٢٢٢].

ومن الوسائل المعينة على غض البصر توجيه القلب والعقل إلى اهتمام أرفع قدرًا، وأسمى منزلة، تتحقق فيه إنسانية المرء، وتلوح فيه سبل نجاته، وهو الاهتمام بما ينفع المرء ويعود عليه بالخير.

إن المرء قد يتجسس تلبية لشهوة مسيطرة، وإشباعًا لرغبة فطرية تثور في نفسه، والعاقل من أخضع هذه الشهوات والرغبات لسلطان العقل ووجه نفسه إلى أن في الكف عن هذا اللون من التجسس ثمرة مرتجاة مشتهاة هي الرغبة السامية في نفس كل إنسان إلى فضائل الأعمال ومحاسنها.

ويؤول حفظ العين من التجسس إلى اكتساب صفة حميدة يرتجيها كل عاقل ويكبرها كل كريم، وهي العفة، فمن عفت نفسه غض بصره، وفي ذلك يقول ابن

---

[٢٢٠] المرجع السابق: ٩٣.

[٢٢١] المرجع السابق:٩٧.

[٢٢٢] المرجع السابق: ٨٢.

www.mtenback.com

حزم في معرض تعريفه العفة. «حد العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحل لك، فما عدا ذلك فهو عهر»[٢٢٣].

وقد أدرك الشعراء فضيلة غض البصر، وامتدح بعضهم بالقدرة على قيد لحظه قال[٢٢٤]:

مَا الطَّرْفُ مِنّي إلى ما لَسْتُ أَملِكُهُ ... مَهْما بَدَا لي بِبَاغِي اللَّحْظِ طَمَّاحُ

ويكون لغض البصر ارتباطه الوثيق بما يحوزه المرء من تقوى، وهو ما يكون سببًا في إحراز مكانة في المجتمع لا تكون لمن يطلق عينه تتجسس على الآخرين. يقول الشاعر[٢٢٥]:

عليه مِنَ التقوَى رِداءٌ يُكِنُّهُ ... وَللحقِّ نورٌ بينَ عَيْنَيْه سَاطِعُ

يُغَضُّ له طَرْفُ العُيونِ وَطَرْفُهُ ... عَلى غَيْرِهِ مِن خَشْيَةِ اللهِ خَاشِعُ

إن الشاعر في هذين البيتين يقدم لنا نموذجًا يحتذى لمن تمسك بالتقوى، وتحرى الحق، فغضّ الطرف عما لا يحل، فكان من البديهي ألا يصوب الناس عيونهم إليه استعظامًا لقدره، وإدراكًا لمكانته ومنزلته.

أكثر الأسئلة فيها آفات!

ثمة علاقة وثيقة جامعة بين التجسس من ناحية واللسان من ناحية أخرى، ولإدراك طبيعة هذه العلاقة علينا أن نتأمل طبيعة النفس الإنسانية وما ركب فيها من حب الاستطلاع ومعرفة ما يخص من أمور الناس. وقد ألمح الغزالي إلى شيء من ذلك

---

[٢٢٣] الأخلاق والسير: ١٢٨.

[٢٢٤] عبيد بن الأبرص: ٣٨.

[٢٢٥] ابن أبي حفصة، مروان،: ديوان مروان بن أبي حفصة، تحقيق: د. حسين عطوان، القاهرة، دار المعارف، (١٩٧٣م)، ص ٦٦.

www.mtenback.com

وذكر كيف يتجنب المرء ما لا يخصه بأن يلزم الصمت وألا يسأل عن أحوال المرء، وإذا رآه في طريق أو في حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره وموارده[٢٢٦].

يبدو لنا السكوت جامعًا لفضائل عدة، يصون صاحبه من كثير من الآفات السلوكية والرذائل، فالمرء الذي يصون لسانه يمسك عن الخوض في زلات إخوانه وعيوبهم، وينأى بنفسه عن الجدال والمماراة، ويعرض عن التجسس والتطلع إلى أحوالهم التي لا تعنيه بدافع فضول لا يغني عنه شيئًا. ويظهر لنا هذا من قول الغزالي ملخصه أنك لو طلبت منزها عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة، ولن تجد من تصاحبه أصلاً، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ فهو الغاية والمنتهي، فالكريم أبدا يحضر في نفسه محاسن أخيه، لينبعث من قلبه التوقير والمودة والاحترام. وأما اللئيم فإنه أبدًا يلاحظ المساوئ والعيوب، والكريم يطلب المعاذير، واللئيم يطلب العثرات،... والفتوة العفو عن زلل الإخوان، واستعيذوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيرًا ستره، وإن رأى شرًا أظهره[٢٢٧].

ويمكننا التمثيل بعشرات الأمثلة من حياتنا اليومية التي توضح مغبة السؤال الذي لا يجدي شيئًا، ولا فائدة منه سوى إشباع فضول يكون الضرر في إشباعها أكثر من النفع. فقد يسأل إنسان جاره عن رزقه طعامه وشرابه فيداخله الاستخفاف به إن رأى أنه أفضل من جاره حالاً أو يداخله حقد وحسد إن كان جاره أحسن منه حالاً.

ويمتد هذا التوجيه ليشمل عدم الخوض في موضوعات لا تعني المتحدث، فالأمر لا ينحصر في مجرد الإمساك عن السؤال، ومما روي في ذلك أن رجلاً زار أحد الحكماء في بيته، وبينما هما جالسان قال الرجل للحكيم: «لو أمرت بما في سقف بيتك من

---

[٢٢٦] إحياء علوم الدين: ١٧٧/٢.

[٢٢٧] المرجع السابق: ١٧٧/٢.

www.mtenback.com

نسج العنكبوت فينظّف. فقال الحكيم له: أما ما علمت أنه كان يكره فضول النظر؟!»[٢٢٨].

إن هذا الرجل لم يحفظ بصره فأجاله في بيت مضيفه، وترتب على ذلك أنه قد خاض بلسانه في موضوع تأذى به صاحبه، وقد نبه الحكيم إلى العلة الأساسية في ذلك كله وهي الفضول والاهتمام بما لا يعني هذا الرجل.

فما أكثر ما يكون التجسس وليد فضول في نفس المرء ويحب أن يشبعه، فيشرع في التجسس على الآخرين.

وكان أبو الدرداء - رضي الله عنه - يقول لأصحابه: لا تكلفوا من أمور الناس ما لم تُكَلَّفوا، ولا تحاسبوهم دون ربهم تعالى. ابن آدم! عليك نفسك، فإنه من يُكْثِر تتبع الناس لما يرى في أيديهم يطل حزنه ويكثر فكره، ولا يُشفَى غيظه[٢٢٩].

إن في اجتناب الأمور التي لا تعني، والإمساك عن الحديث فيها خيراً عميماً يدرك المرء به السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة. قال أبو ذر: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال هو الصمت، وحسن الخلق، وترك ما لا يعنيك»[٢٣٠].

إن العواقب الوخيمة المترتبة على عدم حفظ اللسان، وخوضه فيما لا يعني الإنسان يجعل الصمت وحسن الخلق وترك الفضول الذي لا يفيد أموراً من جلائل الأعمال يظفر بها صاحبها بالثواب الجزيل. وكان العقلاء حريصين على التوجيه إلى ترك ما لايعني الإنسان وقالوا: لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً[٢٣١].

---

[٢٢٨] ذم الهوى: ص٨٧.

[٢٢٩] لباب الآداب: ص١٦.

[٢٣٠] المرجع السابق: ٣/ ١١٣.

[٢٣١] المرجع السابق: ٣/ ١١٣.

www.mtenback.com

فكأن الكلام ينبغي أن يخضع دومًا للتمهل والرقابة والرويـــة، فـــلا يتحـــدث الإنسان فيما لا يعنيه، لأنه يفكر فيما يترتب على ذلك من الوزر، حتى الكلام فيمـــا يعني الإنسان لا ينبغي أن يكون قبل أن يحسن الموضع الذي يصح وضع الكلام فيه.

وقد كان بعض الحكماء يتحرون التحلي بهذه الصفة، ولا يبالون بما يجدون في سبيل ذلك من مشقة، قال بعضهم: «أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة، و لم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه، قالوا: وما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيني»![٢٣٢]

فهذا الرجل الصالح ما زال يتحرى إمساك لسانه عما لا يعنيه عشرين ســـنة و لم يمله طول المدة، فبقي حريصًا على التحلي بهذه الصفة، طالبًا لها.

لم لا وهي أحد أصول الحكمة، قيل للقمان الحكيم: ما حكمتـــك ؟ قـــال: لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني[٢٣٣].

ومما يعين على ترك الانشغال بما لا يعني أن يأخذ المرء نفسه باســـتثمار وقتـــه وساعات أيامه بما ينفعه أولاً وينفع به من حوله من الناس ثانيًا.

الجيران طلائع عليك:

وتتخذ علاقة الجيرة أهمية خاصة في الحديث عن التجسس، لما يكون بين المـــرء وجاره من اقتراب المسكن، وتكاشف الأحوال، المرئي والمسموع منها، على نحو مـــا يقول الجاحظ: «الجيران طلائع عليك، وعيونهم نواظر إليك»[٢٣٤].

ومنذ القدم أدرك العرب خطر علاقة الجوار، فالتمسوا من الضمانات ما يحـــول دون وقوع ما يسيء بين الجيران، فقد أوصى عمرو بن كلثوم بقوله: «أكرموا جاركم

---

[٢٣٢] المرجع السابق: ٣/ ١١٣.

[٢٣٣] المرجع السابق: ٣/ ١١٣.

[٢٣٤] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: رسائل الجاحظ، تحقيق: وشرح عبد الســـلام محمـــد هـــارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، (١٩٧٩م)، ج٣، ص١٥.

www.mtenback.com

يحسن ثناؤكم، وأبعدوا بيوت النساء عن بيوت الرجال، فإنه أغض للبصر،و أغب للذكر، ومتى كانت المعاينة واللقاء ففي ذلك داء من الأدواء، ولا خير فيمن لا يغار لغيره كما يغار لنفسه، وقل من انتهك حرمة لغيره إلا انتهكت حرمته»[٢٣٥].

تشير الوصية إلى فوائد جمة منها: أن إكرام الجار سبب للمكانة والرفعة، ومنها الحرص على القضاء على مظان الفتنة، بالفصل بين مساكن الرجال ومخادع النساء وتحاشي العيون والمتطفلين.

وتشير الوصية أخيراً أن ثمة قصاصاً عاجلاً يحل بمن يستهين بحقوق الجار من هذه الزاوية، إذ قل من انتهك حرمة لغيره إلا انتهكت حرمته.

إن للجار حرمة لا ينبغي الاستهانة بها، ومصير من ينتهك هذه الحرمة أن يسعى ليذود عن نفسه التجرع من الكأس نفسها، وقد تنوعت الدواعي التي تحمل ذوي الفطر المستقيمة على رعاية هذا الأمر، وهو ما يجعلهم من الفائزين السعداء.

يقول الزمخشري: «إن اتقاء المحارم من أجل المكارم، فاتقها إما لكرم الغريزة، وحمية النفس العزيزة، وإما للتوقف عند حدود الشارع، وتخوف الزواجر والقوارع، وأية طريق سلكت فنفسك في السعداء سلكت، وعلى أيهما وقعت فقد دفعت إلى جنب طيب، وسرارة واد مخصب، ينبت لك من الثناء الدوح الأعلى، ويخرج لك من الثواب الثمر الأحلى. وإن ظاهرت بين الأمرين مظاهرة الدارع، وكما تكون بزة البطل المقارع، فجعلت شعارك الإباء والحمية، ودثارك التقية الإسلامية، وذلك هو المظنون بأشباهك أولي الشهامة والحزم.

و الشاعر العربي يؤكد أن جاره لا يضره عدم اتخاذ ستر يحجبه لم لا ؟ وهو أعمى عن نسائه، أصم عما يدور في بيت جاره من حديث[٢٣٦]:

---

[٢٣٥] جمهرة خطب العرب: ٤٨/١.

[٢٣٦] ذم الهوى: ص٨٩.

www.mtenback.com

مـا ضَـرَّ لي جـارًا أُجـاورهُ ... أن لا يكـونَ لبابِـه سِـتْرُ
أَعَمَـى إِذا مـا جـارَتِي خَرجـتْ ... حَتَّـى يُـواري جَـارتي الخِـدْرُ
وتَصُـمّ عَمَّـا بَيْنَهُـمْ أُذُنِـي ... حَتَّـى يَصِـيرَ كَأَنَّـه وَقْـرُ

ويؤكد شاعر آخر أن جارته تأمن من اطلاعه عليها، ويرى أن حفظ حقوق الجار في هذا، والتواصي بذلك، هو من خير ما يرثه الأبناء عن الآباء والأجداد(٢٣٧):

يَبِـينُ الجـارُ حِـينَ يَبِـينُ عَنّـي ... ولم تـأنسْ إليَّ كِـلابُ جَـاري
وَتظعن جَارَتِي مِـن جَنْـبِ بَيْتِـي ... وَلَم تُسْـتَر بِسـترٍ مِـن جِـدارِ
وَتَـأْمَنُ أَن أُطَـالِعَ حِـينَ آتِـي ... عَلَيْهَـا وَهْـيَ وَاضِعَـةُ الخِمَـارِ
كَذَلِـك هَـدْيُ آبَـائِي قَدِيمـا ... تَوارَثَـه النِّجارُ عَـن النِّجَـارِ

ومما يفخر به الشاعر حرصه على غض طرفه عـن جارتـه حتـى يسترها بيتها(٢٣٨):

أَغْشَى فتـاةَ الحـيِّ عِنْـد حَلِيلِهَـا ... وَإِذا غـزا في الجَيْـشِ لا أَغْشَـاها
وَأَغُضُّ طَرْفِي إِن بَدتْ لِـي جَـارَتِي ... حَتَّـى يُـوَارِي جَـارَتِي مَأْوَاهَـا

ويؤكد الشاعر القديم رعايته لحقوق جيرانه، وأنه لا يختلق الأعذار لزيـارتهم متحريًا عوراتهم، منتهكًا حرمتهم، كما نجد في هذه الأبيات التي ينفي الشاعر فيهـا زيارة جيرانه متظاهرًا بمداعبته أطفالهم، وهو يقصد رؤية أهل البيت من النساء(٢٣٩):

(٢٣٧) علوان، عبد الله ناصح: تربية الأولاد في الإسلام، القـاهرة، دار السـلام للطبـع والنشـر، ط٨، (١٩٨٥م)، ص٣٩١.

(٢٣٨) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية: ١/ ٧٨.

(٢٣٩) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: ديوان الحماسة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميـد، القـاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، (د.ت) ج١، ص٣٨٧-٣٧٩.

www.mtenback.com

وَلَسْتُ بِسَائلٍ جارات بَيْتي أَغُيَّابٌ رِجالُكِ أم شُهودُ؟!
ولستُ بِصَادرٍ عن بَيْتِ جَارِي صُدُورَ العَيرِ غَمَّرَهُ الوُرُودُ
ولا مُلْقٍ لِذي الوَدَعَاتِ سَوْطِي أُلاعِبُه وَرِبّتَهُ أُرِيدُ

ويدعونا شاعر إلى خلق أكثر نبلاً والتزامًا، فهو لا يدعونا إلى مجرد الإمساك عن تتبع عورات الجار فحسب، بل يدعونا إلى بذل الجهد في ستره(٢٤٠):

إذا كُنْتَ جَارًا لامْرِئ فَارْهَبِ الخَنَا على عِرْضِه إنَّ الخَنا طَرَفُ الغَدْرِ
وَذُدْ عَن حِماه مَا عقَدتَ حِبالَه بحبلكَ واسْتُرْهُ بِما لَكَ مِن سَتْرِ

وهكذا فمن أظهر أخلاق البيوت العربية العريقة عدم الفطنة إلى عيوب الجار(٢٤١):

إنِّي امْرُؤٌ لا يَعتري خُلُقي دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ وَلا أَفَنُ
مِنْ مَنْقَرٍ في بيت مَكْرُمَةٍ والغُصْنُ يَنبُتُ حولَه الغُصْنُ
خُطَبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَائلُهم بِيْضُ الوُجُوهِ مَصَاقِعٌ لُسْنُ
لا يَفْطَنُونَ لعَيْبِ جَارِهِمُ وهُمُ لِحفْظِ جِوارِهِ فُطْنُ

ونظرًا لأن التزاور يكثر بين الجيران فلعله من الملائم أن نشير في هذا السياق إلى بعض آداب الاستئذان، من ذلك أنه ينبغي «ألا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو عن يساره، وعليه ألا يدخله إن لم يكن في البيت أحد»(٢٤٢).

---

(٢٤٠) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية: ١/٧٨.

(٢٤١) المرجع السابق: ١/٧٨.

(٢٤٢) القلموني، أبو ذر: ففروا إلى الله، الشركة الدولية للطباعة والإعلان (د.ت) ص١٥١، ١٥٢.

www.mtenback.com

هل يذم التجسس على الدوام؟

للتجسس أنواع وصور متعددة يعتريه أكثر من حكم، فقد يكون حرامًا، وقد يكون واجبًا، وقد يكون مستحبًا.

فإذا كان التجسس على المسلمين، وكان الغرض منه مجرد الكشف عن عيوبهم، وتتبع عوراتهم بغرض فضيحتهم والإساءة إليهم، فهذا حرام وقد جاء النهي عنه والوعيد عليه[٢٤٣]. والتجسس على المسلمين، ونقل أخبارهم إلى الأعداء، وكشف خططهم، جريمة كبيرة، وذنب عظيم لا يصح من مسلم أمر بموالاة المؤمنين، ومعاداة المشركين، وهذه الجريمة الشنيعة إنما هي من أخلاق المنافقين الذين يُحسِبون على المسلمين في الظاهر ويكيدون لهم في الواقع[٢٤٤].

«وإذا ترتب على جسّ الجاسوس وهن الإسلام وأهله من قتل أو سبي أو نهب أو شيء من ذلك، فهذا ممن سعى في الأرض فسادًا، وأهلك الحرث والنسل، فيتعين قتله، وحق عليه العذاب، وبالضرورة يدرك كل ذي حس أن النميمة إذا كانت من أكبر المحرمات فنميمة الجاسوس أكبر وأعظم»[٢٤٥].

«أما تجسس السلطان وأعوان الحكام على المجرمين، وقطاع الطرق والمفسدين في الأرض بغرض حماية الأمة منهم وقطع الدرب دون فسادهم فهذا واجب، وهو من أعظم وظائف ولاة الأمر»[٢٤٦] وهو ما لا يشمله النهي المنصوص عليه في الآية لأن النهي غايته كل ما يثير العداوة بين الناس[٢٤٧].

---

[٢٤٣] الزواجر في التحذير من الكبائر: ص٤٣٦.

[٢٤٤] المرجع السابق: ص٤٣٨.

[٢٤٥] اجتناب الكبائر: ص٢٥٢.

[٢٤٦] الزواهر في التحذير من الكبائر: ص٤٣٦.

[٢٤٧] روح الأدب الإسلامي: ص٢٣٥.

www.mtenback.com

وتتبع السلطان أحوال رعيته في هذه الحال ليس هدفًا مقصودًا في ذاته وهو لا يعد تجسسًا بالمعنى الحرفي المباشر للتجسس، فالحاكم يمسك عنه إن كان في ذلك مدعاة للفضيحة وهتك الستر.

ويمكننا أن نستشهد على صحة ذلك ببعض ما روي من سيرة أمير المؤمنين الفاروق عمر، فعن عبد الرحمن بن عوف قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ليلة في المدينة، فبينما نحن نمشي ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه، فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات لَغَط فأخذ عمر بيدي، وقال: أتدري بيتُ من هذا ؟ قلت: لا! فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب! فما ترى؟! قلت: أرى أننا قد أتينا ما نهانا الله عنه! قال تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم[٢٤٨].

فقد وجد عمر أن في إعراضه عن هؤلاء العصاة سترًا لهم فأعرض. ويكون في هذا الإعراض ما يحقق الغاية التي تدفع الحاكم إلى تحري أحوال الناس. وفي سيرة عمر رضي الله عنه ما يؤكد ذلك أيضًا، إذ روي أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة من الليل، فسمع صوت رجل في بيت يتغنى، فتسوَّر عليه، فوجد عنده امرأة وعنده خمر، فقال: يا عدو الله! أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته ؟! فقال: وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل! فإن كنت قد عصيت الله في واحدة فقد عصيت الله فيَّ ثلاثًا! قال الله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾[٢٤٩] وقد تجسست، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾[٢٥٠] وقد تسورت علي، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا

---

[٢٤٨] إحياء علوم الدين: ٢/٢٠٠.

[٢٤٩] سورة الحجرات: ١٢.

[٢٥٠] سورة البقرة: ١٨٩.

www.mtenback.com

غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾[٢٥١] وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام!! فقال عمر هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال: نعم والله يا أمير المؤمنين! لئن عفوت عني لا أعود إلى مثلها أبدًا. فعفا عنه وخرج وتركه[٢٥٢].

إن الدافع الأساسي الذي جعل الفاروق يعس ليلاً هو تفقد أحوال المسلمين والاطمئنان على توقي المسلمين الحرمات، وحرصهم على صلاح دينهم، ولما كانت هذه الأهداف متحققة مع العفو والإعراض فقد وجدنا عمر رضي الله عنه يعفو عن الرجل ويتركه.

التجسس والحرب:

يعد التجسس على الأعداء لمعرفة عددهم وأسلحتهم وأحوالهم وما يعتزمون تنفيذه من خطط الهجوم من الركائز الجوهرية للقتال، وعلى كل قائد الاستفادة من هذا النوع من التجسس، وأن يوفر له الضمانات الكافية لتحقيق أهدافه.

وهذا غير منهي عنه: التجسس على الأعداء في الحرب وبث العيون للتعرف على أخبارهم وعددهم وعتادهم أمر مُستحَبّ، وربما يرقى إلى درجة الوجوب إذا تعيَّن طريقًا لوقاية الأمة من غدرهم وكيدهم[٢٥٣].

وفي سيرة رسول الله ﷺ ما يقطع بصحة ذلك « دعا حُذَيفَة رضي الله عنه في غزوة الخندق حين كان المشركون يحاصرون المسلمين، وقال له: يا حذيفةُ اذهبْ فادخلْ في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تُحدِثْ شيئًا حتى تأتيَنا»[٢٥٤].

---

[٢٥١] سورة النور: ٢٧.

[٢٥٢] إحياء علوم الدين: ص٢/٢٠١.

[٢٥٣] الزواجر في التحذير من الكبائر: ص٤٣٦.

[٢٥٤] المرجع السابق: ص٤٣٧.

www.mtenback.com

وتكرر عن الرسول ﷺ إرسال العيون لرصد تحركات الأعداء والمشركين وإتيانه بأخبارهم،وهذا من باب الحيطة في الحرب، والمكر بالعدو، وإعداد الحيل للنصر عليه، قال رسول الله ﷺ: «الحرب خُدْعة»[٢٥٥].

وثمة واجبات على من يرسل في استطلاع أحوال الأعداء، منها أن تختار العيون على نحو محكم ودقيق، بما يحقق الأهداف المطلوبة. وكان من وصية عمر إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد: «إذا وطئت أرض العدو فَأَذْكِ العيون بينك وبينهم، ولا يَخْفَ عليك أمرُهم. والغاشُّ عين عليك وليس عينًا لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وتنق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخيرلهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك»[٢٥٦].

ونظرًا لأهمية الدور الذي تنهض به هذه الطلائع أو العيون فقد وجب على القائد توفير أقصى درجة من الحماية لهم «ولا تبعثنَّ طليعةً ولا سرية في وجه تتخوَّفُ فيه غلبة، أو ضيعة ونكاية.. ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك» إلى أن قال: حتى تبصر عورة عدوك ومقتله[٢٥٧].

وينبغي أن يحدد مسير أو سير القائمين على الاستطلاع بدقة، بما يمكنهم من الإفادة من ظروف البيئة والمكان ليضمنوا سلامتهم ويحققوا غايتهم. فمن مكائد الحرب أن تسير الطلائع في قرار من الأرض ويقفوا على القلاع، ولا يتجاوزوا أرضًا لم يستقصوا خبرها[٢٥٨].

---

[٢٥٥] بدائع السلك: ١ /١٦١.

[٢٥٦] جمهرة خطب العرب: ١ /٩٤.

[٢٥٧] ابن قتيبة، أبو عبد الله بن مسلم: عيون الأخبار، القاهرة، دار الكتب المصرية، (١٩٢٥م)، ج١، ص١١٢.

[٢٥٨] المرجع السابق: ١/ ١١٢.

www.mtenback.com

ولابد من الأخذ بمبدأ الثواب والعقاب ليأمن القائد بذلك تسرب أخبارٍ غير صادقة، يبني عليها خططه، فيتعرض للأخطار، فلا بد من إعداد العيون على الرصد، وإعطاء المبلغين على الصدق، ومعاقبة المتوصلين بالكذب»[٢٥٩].

أما عن هذه الأخبار التي ينشد القائد معرفتها عبر طلائعه فتتمثل في معرفة ما عندهم من العَدَد والعُدَّة،ومالهم من المكائد والحيل، وكم عدد رؤسائهم وشجعانهم وما منزلتهم عند صاحبهم[٢٦٠].

والقائد الماهر مَنْ جَمع الأخبار بطريق غير مباشر، وذلك بتبادل الأحاديث العادية مع الجنود، فيقف بذلك على ماورد إليهم من أخبار عن عدوهم، فمما نصح به أبو بكر الصديق يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار»[٢٦١].

وإذا كان من واجبات القائد الحرصُ على معرفة أنباء العدو، فإن ثمة واجبًا كبيرًا في صيانة أسرار الجيش من الذيوع والانتشار، نظرًا لخطورة دور الجواسيس في الحرب، ولذلك فإن من الواجب أن تُعَمَّى الأخبار عن العدو، وأن تسد دونه أبوب العلم بها حتى لا يطلع على ما يحمله على اغتنام فرصة، أو يحاول به إبطال مكيدة عليه، وذلك بإذكاء العيون على الجواسيس المترددة إليه، وانظر إلى دعاء النبي ﷺ حين توجه إلى فتح مكة: «اللهم أَعْمِ عن قريش الأخبار»[٢٦٢].

وفي سيرة رسول الله ﷺ ما يعلّم القادةَ ذلك، إذ «لما خرج الرسول ﷺ إلى بدر مر حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن محمد وقريش وما بلغه من خبر

---

[٢٥٩] المرجع السابق: ١/١١٣.

[٢٦٠] بدائع السلك: ١/١٦١.

[٢٦١] جمهرة خطب العرب: ١/٧٦.

[٢٦٢] بدائع السلك: ١/١٦١.

www.mtenback.com

الفريقين، فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبروني ممن أنتم، فقال رسول الله ﷺ إذا أخبرتنا أخبرناك، فقال الشيخ خبرت أن قريشًا خرجت من مكة وقت كذا، فإن كان الذي خبرني صدق فهي اليوم مكان كذا وخبرت أن محمدًا خرج من المدينة وقت كذا، فإن كان الذي خبرني صدق فهو اليوم مكان كذا، للموضع الذي به رسول الله ﷺ ثم قال: من أنتم؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء، ثم انصرف، فجعل الشيخ يقول: نحن من ماء! من ماء العراق أو ماء كذا أو ماء كذا![٢٦٣].

لقد تصرف رسول الله ﷺ بحكمة فعرف ما يلزمه معرفته من أخبار دون أن يضطر إلى ذكر أخبار تكشف عن شخصيته وجيشه.

ومن الواجب الحذر مع رسل الأعداء، حين يفدون إلى معسكر الجيش، لأنهم يأتون وفي رجائهم تحصيل ما يقدرون عليه من أخبار، وقد أوصى أبو بكر رضي الله عنه أحد قادته بما ينبغي أن يعامل به هؤلاء الرسل: «إذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا تريثهم فيروا خللك، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع مَنْ قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك كعلانيتك»[٢٦٤].

ولطبيعة معاملة أفراد الجيش أثر في تسرب بعض أخباره إلى الأعداء وهو ما ينبغي مراعاته، جاء في وصية أبي بكر «ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسدَه، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا يكشف الناس عن أسرارهم»[٢٦٥].

---

[٢٦٣] عيون الأخبار: ١/١٩٤.

[٢٦٤] جمهرة خطب العرب: ١/٧٦.

[٢٦٥] المرجع السابق: ١/٧٦، ٧٧.

www.mtenback.com

وعلى القائد أن يفيد من طبيعة الموقع المحيط به، ويفيد من الظروف الملائمة للتمويه على الأعداء والحفاظ على أسرار الجيش، ينبغي للمبيتين أن يفترضوا البيات إذا هبت ريح أو أنس من نهر قريب منهم خرير فإنه أجدر ألا يسمع لهم حس، وأن يتوخى بالوقعة نصف الليل، أو أشد ما يكون إظلامًا،... وليعلم أنه إنما يحتاج في البيات إلى تحيير العدو وإخافته[٢٦٦].

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

[٢٦٦] عيون الأخبار: ١/١١٤.

www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مرتضى بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا... الآية﴾	٤٥-٤٦	٨
النور	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ... الآية﴾	٢٣	٦٩
الأحزاب	﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ... الآية﴾	٣٢	٢٦
فصلت	﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ... الآية﴾	٢٢-٢٣	٨
الحجرات	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ... الآية﴾	٦	١٣
	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا.... الآية﴾	١٢	٨،١٣،٦١، ٦٩،٧٠، ٧٤،٧٧
الحاقة	﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ... الآية﴾	٢٠	٧

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«إذا أخبرتنا أخبرناك»	٩٥
«ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل»	٨٥
«أنا عند ظن عبدي بي»	٣٤
«أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»	٣٨
«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان»	٢٩
«إنّ الله قد حرّم على المؤمن»	١٠
«إنّها صفية بنت حيي»	٣١
«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا»	٧٧
«الحرب خدعة»	٩٣
«دع ما يريبك إلا ما لا يريبك»	٢٣
«رحم الله امرأ حَبّ المغيبة عن نفسه»	٢٣
«لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى»	٨١
«لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا»	٧٤
«اللهم أعم عن قريش الأخبار»	٩٤
«لو أنّ رجلاً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة»	٧٨
«ما كرهتَ أن يراه الناس منك فلا تعمله»	٣٢
«من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبّ»	٧٧
«وإن ظننت فلا تحقق»	٩
«يا حرملة ائت المعروف»	٢٣
«يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان»	٧٨

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
— ء —				
خيرُ	ثناءِ	—	٣	٣٣
— ب —				
لا تحمدن	تجريب	—	٢	٥٥
وليس عتاب	يعاتبه	—	١	٢١
الجودُ	المسبة	أبو العتاهية	١	٢٨
أحب	أعابا	الحسين الأسدي	٢	٣٠
ودع	يريبُ	أبو العتاهية	١	٣١
إذا ما	رقيب	أبو نواس	١	٣٢
ذهب	الأجرب	—	٢	٤٥
إذا وترت	العنبا	—	٢	٤٥
ألم تر	جانبا	—	٥	٤٧
خادع	الشباب	ابن قيس الرقيات	٥	٥٧
جهلوا	سراب	—	١	٥٩
أظننت	محاربُ	—	٢	٥٩
لو ميزت	القريب	—	٢	٨٠
— ت —				
أحب	عثراتي	أبو العتاهية	٢	٤٦
لا بر	مساعدته	محمد بن حسن الوراق	٣	٤٨
— ح —				
الله يعلم	الكاشح	العباس بن الأحنف	٢	٣٢

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
وكم سقت	المتنصح	—	١	٥٢
ما الطرف	طماح	عبيد بن الأبرص	١	٨٣
— د —				
من حمد	يحمد	—	٢	١٦
عن المرء	مقتد	—	١	٢٦
يستهدف	يرمي غدا	الرصافي البلنسي	١	٣٦
إذا كنت	مرشد	عبيد بن الأبرص	٥	٤٢
عن المرء	مقتد	—	١	٤٣
ولا تظهرن	أو احمد	عبيد بن الأبرص	١	٤٤
وأغفر	بمحقدي	عبيد بن الأبرص	١	٤٩
أبل	تفقد	المقنع الكندي	٣	٤٩
وأبغض	أذود	أبو تمام	٤	٨٩
— ذ —				
وهجر	على قذى	—	٢	٤٨
— ر —				
يروم أذى	أعور	—	١	١٠
أي امرئ	الحقير	—	١	١١
قد يستدل	النار	—	١	١٥
إذا كنت	والبصر	—	٦	٢٤
لئن فاتني	الخبر	ابن زيدون	٢	٢٧
سأقنع منك	المختصر	ابن زيدون	٤	٢٧
وما أحد	المطهر	—	٣	٢٧

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
أحسنتَ	القدر	—	٢	٣٦
إليك فما	بقاصر	—	٢	٣٧
أحب	وقرا	أبو العتاهية	٢	٤٥
لو أنني	أقدار	ابن زيدون	٣	٥٠
وكنتُ	يضيرا	—	٣	٥٠
خليل	أذكره	إسحاق الموصلي	٤	٦٧
لواحظنا	بالجرائر	—	٢	٧٩
والمرء	على خطر	—	٢	٨٠
ما ضرّ	ستر	—	٣	٨٨
يبين	جاري	—	٤	٨٨
إذا كنت	الغدر	—	٢	٨٩
— ص —				
وسؤ	الثنا حصصا	—	١	٥٤
— ض —				
وأبعد نفسي	والعرض	عبد الله بن المعتز	١	٢٥
لست ممن	عرضا	—	٣	٤٩
— ط —				
التيه	والسخط	محمد الوراق	٢	٣١
عجبت	يروعُ	بلا	٢	١٤

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ ع ـ		
قد يستدل	النار	ـ	١	١٥
الألمعي الذي	سمعا	أوس بن حجر	١	١٨
ألم تعلمي	يمنع	ابن زيدون	٣	٣٩
لا يعجبنك	ما طباعه	ابن قيس الرقيات	٥	٤٤
أرى	يشيعها	ابن هرمة	١	٤٧
وما كُل	أراع	ـ	١	٥٩
يقول	الوجعا	ـ	٤	٨١
عليه	ساطع	مروان بن أبي حفصة	٢	٨٣
		ـ ق ـ		
رام	عقوقا	ـ	١	٦٤
		ـ ك ـ		
من جعل	كباغيه لكا	ـ	١	٦٨
		ـ ل ـ		
وأكذب النفس	بالأمل	ـ	١	٢٢
كيف	به حيلي	إبراهيم بن هرمة	٢	٢٩
يسبق	العجل	إبراهيم بن هرمة	٢	٣٠
فأقسم	المقال	العباس بن الأحنف	٢	٣٢
أفي طلب	كفيل	ـ	٢	٣٨
لا ترض	جليل	صالح بن عبد القدوس	١	٦٤
وأنا الذي	القاتل	ـ	١	٨٢

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـــ م ـــ		
لا تتركن	أحزم	ابن زيدون	١	٢٥
وفضلُ	انتقاما	محمود الوراق	٢	٥٩
ألا إن	أثام	صالح بن عبد القدوس	١	٦٥
		ـــ ن ـــ		
لقد علمت	يأتيني	عروة بن الورد	٢	٣٩
إنّ الحماة	بالظنة	ـــ	١	٤١
وما شيمتي	يرتجيني	حاتم الطائي	٥	٤٨
ينبيك	الخدين	ـــ	٣	٦١
فلا ويمين	ظنين	ـــ	١	٧٢
وترى الكريم	الإحسانا	ـــ	٢	٧٥
إني امرؤٌ	لا أفَنُ	ـــ	٤	٨٩
		ـــ هـ ـــ		
أغشى فتاة	أغشاها	ـــ	٢	٢٦، ٨٨
يا واعظ	يأتيها	ـــ	١	٢٨
من ظن	بالله	محمد بن حسن الوراق	١	٣٨
ومن يتبع	يناها	ـــ	١	٧٩
قلبي	أبكاها	ـــ	٣	٨١
اكره لغيرك	من ينتزه	ـــ	١	٢٥
		ـــ ي ـــ		
وعين الرضا	المساويا	ـــ	١	١٢

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأمثال

المثـــل	الصفحة
«احتجزوا من الناس بسوء الظن»	٥٣
«احذر صولة اللئيم إذا شبع»	١٩
«استصغر المشقة إذا أدت إلى منفعة»	١٩
«افعل كذا وخلاك ذم»	٣٤
«اكذب النفس إذا حدثتها»	٢٢
«الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة»	٢٦
«آفة العقل العجب»	٢١
«أشد الناس استعظاما للعيوب بلسانه هو»	٥٧
«الألمعي منجم»	١٩
«إذ شاهد البغض اللحظ»	٥٧
«إن الشفيق بسوء ظن مولع»	٤٠
«إني إذا حككت قرحة أدميتها»	١٨
«تجنّب روضة وأحال يعدو»	١٧
«تخبر عن مجهوله مرآته»	١٤
«ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل»	١٧
«تسقط به النصيحة على الظنة»	٥٢
«الجيران طلائع عليك، وعيونهم نواظر إليك»	٨٦
«حبك الشيء يعمي ويصم»	١٢
«حركات العيون تدل على ما في القلوب»	٥٦
«الحزم سوء الظن»	٥٣
«ذهاب البصر خير من كثير من النظر»	٧٩

www.mtenback.com

المثـــل	الصفحة
«رب نظرة زرعت شهوة»	٨٠
«رضا الناس غاية لا تدرك»	٣٤
«السوداء بنت السيد أحب إلي من الحسناء»	٥٥
«الصنيعة عند الكفور لا تثمر إلا مراً»	١٩
«ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد»	٥٨
«ظنّ الرجل قطعة من رأيه»	١٥
«ظن العاقل خير من يقين الجاهل»	١٥
«العاقل من يرى بأول رأيه عاقبة الأمور»	١٨
«العقل الإصابة بالظن»	١٥
«العين ترجمان القلب»	٥٦
«العيون طلائع القلوب»	٥٦
«كثرة الريب تعلّم صاحبها الكذب»	٧٠
«كظّني بنفسي»	١١
«كيف بغلام قد أعياني أبوه»	١٨
«كيف تبصر القذاة في عين أخيك»	٢١
«لا تجنين على نفسك عداوة وبغضة»	٢٢
«لا تحمد نفسك على ما تركت من الذنوب عجزاً»	٢١
«لا تحمدنّ أمة عام اشترائها، ولا حرة..»	١٦
«لا تقتن من كلب سوء جرواً»	١٨
«لا تكاد الظنون المتفرّقة تجتمع على أمر مستور»	٤١
«لا تمازح الشريف فيحقد عليك»	٢٦
«لا تهرف قبل أن تعرف»	١٤

www.mtenback.com

المثـــل	الصفحة
«لا ينفع حذر من قدر»	٣٧
«اللحظات تورث الحسرات»	٨٢
«من أبصر العاقبة فآثرها أمن الندامة»	١٩
«من استحف بحرمات الله فلا تأمنه»	٥٣
«من جعل لنفسه من حسن الظن بإخوانه»	١٢
«المزاحة تذهب المهابة»	٢٦
«من عرف ثمار الأعمال كان حقيقاً»	١٩
«من لم ينتفع بظنه لم ينتفع بيقينه»	١٨
«من مأمنه يؤتى الحذر»	٣٧
«النظر في العواقب تلقيح للعقول»	١٥

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

الأحاديث القدسية:

القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، ط٣، ١٩٨١م.

ابن الأبرص، عبيد:

ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق: الدكتور حسن نصار، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده مصر، ط١، ١٩٥٧.

ابن الأحنف، العباس:

ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق: عاتكة الخزرجي، القاهرة، دار الكتب، ١٩٥٤م.

ابن الأزرق، أبو عبد الله:

بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: الدكتور علي سامي النشار، بغداد، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧٧.

الأسدي، الحسين بن مطير:

شعر الحسين بن مطر الأسدي، جمعه وحققه الدكتور محسن غياض بغداد، منشورات وزارة الإعلام، ١٩٧١م.

الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين:

الأغاني، أعد الفهارس عبد الستار أحمد فراج، بيروت، دار الثقافة، ط٣، ١٩٦٢م.

البيهقي، إبراهيم بن محمد:

المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٦١م.

www.mtenback.com

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين:

– الآداب، دراسة وتحقيق محمد أحمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٦م.

–مناقب الشافعي، تحقيق: سيد أحمد صقر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠م.

التحبيبي المرسي، أبو مجر صفوان بن إدريس:

زاد المسافر وعزة الآدب السافر، أعده وعلق عليه: عبد القادر محـــداد، بيروت، دار الرئد العربي، ١٩٧٠م.

أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي:

ديوان الحماسة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبـــة التجارية الكبرى.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل:

التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القـــاهرة، دار إحيـــاء الكتاب العربية، ١٩٦١م.

ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحي:

مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام محمد هارون – القاهرة، دار المعـــارف، ط٤، ١٩٨٠م.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:

رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م.

الجزائري، أبو بكر جابر:

منهاج المسلم، القاهرة، دار الفتح، ط٣، ١٩٨٥م.

www.mtenback.com

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن:

ذم الهوى، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٢م.

حتة، محمد كامل:

القيم الدينية والمجتمع، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣م.

ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد:

الأخلاق والسير، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١م.

ابن أبي حفصة، مروان:

ديوان مروان بن أبي حفصة، جمعه وحققه وقدم له: د.حسين عطوات، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٣م.

ابن خلكان، أحمد بن محمد:

وفيات الأعيان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٧م.

أبو داود، سليمان بن الأشعث:

سنن أبي داود القاهرة، دار الحديث، ١٩٨٨م.

الذهبي، الإمام الحافظ شمس الدين:

إتحاف الأكابر بتهذيب كتاب الكبائر، تحقيق الدكتور أسامة محمد عبد العظيم حمزة، القاهرة، دار الفتح، ط١، ١٩٩٠م.

www.mtenback.com

الراغب الأصبهاني، الحسن بن محمد:

- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٦١م.
- المفردات في غريب القرآن، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ط١، ١٩٦٠م.

الرقيات، عبيد الله بن قيس:

شعر ابن قيس الرقيات، تحقيق: ودراسة الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط١، ١٩٩٦م.

الزمخشري، أبو القاسم محمد بن عمر:

مقامات الزمخشري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٢م.

الزنجاني، الإمام أبو القاسم سعد بن علي بن محمد:

الفرق بين الظاء والضاد، تحقيق: محمد سعيد المولوي، بيروت، دار المعاصر، ط١، ١٩٩١م.

ابن زيدون، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب:

ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق: علي عبد العظيم، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م.

السهروردي، محيي بن حبش:

عوارف المعارف، القاهرة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، د.ت.

الشربجي، علي:

الزواجر في التحذير من الكبائر، دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٨٨م.

د. الشكعة، مصطفى:

الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب الشعر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٧٤م.

www.mtenback.com

صفوت، أحمد زكي:

جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٥م.

طبارة، عفيف عبد الفتاح:

روح الدين الإسلامي، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٧، ١٩٧٨م.

ابن عبد البر:

جامع بيان العلم وفضله، صححة وراجعه: عبد الفتاح محمد عثمان القاهرة، العاصمة، ط٢، ١٩٦٨م.

ابن عبد القدوس، صالح:

ديوان صالح بن عبد القدوس، تأليف وجمع وتحقيق: عبد الله الخطيب، بغداد، دار منشورات البصرى، ١٩٦١م.

أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم بن سويد:

أبو العتاهية أخباره وأشعاره، تحقيق: الدكتور شكري فيصل، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٦٥م.

علوان، عبد الله ناصح:

تربية الأولاد في الإسلام، القاهرة، دار السلام للطبع والنشر، ط٨، ١٩٨٥م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد:

إحياء علوم الدين، القاهرة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، (د.ت).

www.mtenback.com

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم:

عيون الأخبار، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٥م.

القلموني، أبو ذر:

ففروا إلى الله، القاهرة، الشركة الدولية للطباعة والإعلان (د.ت).

ابن قيم الجوزية، الإمام شمس الدين بن أبي بكر:

الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق: قصي محب الدين الخطيب، القاهرة، المطبعة السلفية وكتبتها، ط٣، ١٩٨٠م.

الكرمي، سعيد محمد بن سعيد:

الاستقامة، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٥م.

مجمع اللغة العربية:

معجم ألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ط٢، ١٩٧٠م.

ابن المعتز، عبد الله:

طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٦م.

المغربي، القاضي النعمان بن محمد:

كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة، نشر وتحقيق: د. محمد كامل حسين، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.

المقري، الإمام أبو العباس أحمد بن عمار:

ظاءات القرآن الكريم، تحقيق: محمد سعيد المولوي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٩٩١م.

www.mtenback.com

ابن المقفع، أبو محمد عبد الله روزبة بن زاذويه:

- الأدب الكبير، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.
- حكم لابن المقفع، بيروت، دار، مكتبة الحياة، د.ت.
- كليلة ودمنة، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي:

لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محد الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩م.

ابن منقذ، أسامة بن مرشد بن مقلد بن نصر:

لباب الآداب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الكتب السلفية، ١٩٨٧م.

الموصلي، إسحاق:

ديوان إسحاق الموصلي، تحقيق: ماجد أحمد العزي، بغداد مطبعة الإيمان، ١٩٧٠م.

أبو نواس، الحسن بن هاني:

ديوان أبي نواس، تحقيق: وضبط وشرح أحمد عبد الحميد الغزالي، القاهرة شركة مصر، ١٩٥٣م.

النيسابوري، الحسن بن محمد:

عقلاء المجانين، قدمه وعلق عليه: محمد بحر العلوم، النجف المكتبة الحيدرية، ط٢، ١٩٦٨م.

www.mtenback.com

الوراق، محمود بن الحسين:

ديوان محمود بن الحسين الوراق، جمع وتحقيق: عدنان راغب العبيـــدي، بغدار دار البصري، ١٩٦٩م.

ابن هرمه، إبراهيم:

شعر ابن هرمه القرشي، تحقيق: محمد نفاع وحسين عطواني، دمشـــق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، ١٩٦٩م.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com